بلومانيا

رواية

هشام السيد

اسم الكتاب/ ببلومانيا

الكاتب /هشام السيد

الطبعة الأولى 2019

تصميم الغلاف : محمود الغول

مراجع لغوي:علي حافظ

رقم الإيداع :16484

الترقيم الدولي:9789776727441

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير : لميـــاء السعيـــــد

برج الهادي – الدور الأول -36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

01550096215 - 0222017260

elsaidpublisher@gmail.com

حقوق النشر محفوظة

الحقيقة دائما تصدم محدودي النظرة والتجارب ، فإن صادفت يوما حكاية انتبه لتفاصيلها جيدا ، ربما يكون ما بداخل التفاصيل أكثر عمقا من التفاصيل نفسها ، لأن الكلمة المباشرة والتصريح المباشر قد يرفضهما المنطق ..انتبه من فضلك ..

الأصدقاء ثلاثة :

- صديق يفي بالوعد ويفعل المستحيل من أجلك ، حبا ولا غير ذلك.
- صديق يقترب منك ليكن لك وحيا أو يمنحك فكرة فتعيش مجددا.
- صديق تغلبه الغيرة وتدفعه الكراهية ليحطم بقايا نفسك فتموت حيا.

إهداء

- إلى صديقي المحب دائما لصديقه ، أخي المقاتل (أحمد حافظ)
- (ساميه حفيفي) .. قواميس المدح لن تفي حقك ..دام دعمك لأصدقائك.
- إبداعك وصبرك يجعلان منك رمزا لكل فكرة جميلة (ماهي حلمي).
- شكرا (شيماء خليل) ..وحبيبتي (منة الله هشام) .

هشام السيد

« لو لم يكن في شراء الكتب غير أنها عبادة يؤجر عليها فاعلها لكفى ».. إن ظن أنها لن تنفعه وقت شرائها، أو ظن أنه لن يحتاجها، فليضع في نفسه بأنه سيحتاجها فيما يستقبل من مراحل الطلب، وقد يكون الحصول عليها صعباً حين احتياجها.

قال بعض أهل العلم: ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثر منها، ولا يعتقد الغنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال احتاج إليها في حال، وإن سئمها في وقت ارتاح إليها في وقت، وإن شغل عنها في يوم فرغ لها في يوم، وأن لا يسرع ويعجل، فيندم ويوجل، فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده ثم رامه فتعذر عليه مرامه، وابتغى إليه وصولا فلم يجد إليه سبيلا، فأتعبه ذلك وأنصبه وأقلقه طويلا وأرقه، كالذي حكي عن بعض العلماء، أنه في بعض الأيام باع كتابا ظن أنه لا يحتاج إليه، ثم إنه احتاج إلى كلمة منه فقصد صاحبه، وسأله أن يكتبه تلك الكلمة فقال: والله ما تكتبها إلا بثمن الكتاب كله، فرد عليه ثمن الكتاب وكتب تلك الكلمة، وقيل لآخر: ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها؟ فقال: إن لم أحتج إليها اليوم احتجت إليها بعد اليوم.

واشترى رجل كتابا فقيل له: اشتريت ما ليس من علمك، فقال: اشتريت ما ليس من علمي ليصير من علمي، وقيل لآخر: ألا تشتري كتبا تكون عندك؟ فقال: ما يمنعني من ذلك إلا أنني لا أعلم، فقيل: إنما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم، وكان آخر يشتري كل كتاب يراه فقيل: له إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه، فقال: ربما احتجت إلى ما لا أحتاج إليه.

"تقيد العلم" للخطيب البغدادي (ص١٣٦).

.....

كم من كتاب ما كنت أظن أني سأنظر إليه، أصبح بعد في حجري لا أستغني عنه ما دمت أبحث في العلم، ولو تصفحت تراجم كبار الأئمة، والعلماء المبرزين، لوجدت أن القاسم المشترك بينهم هو حب الكتب والشغف بها، فكم من عالم رضي بالجوع دهراً ليقتني الكتب، وكم من عالم آخر باع ثوبه الذي على جسده أو داره التي يسكنها ليمتلك كتاباً، وكم من عالم رضي ببكاء أهله وأولاده عرياً وحرماناً ولم يرض

بيع كتاب له، وكم من إمام بكى وغلب حزنه صبره لما فاته كتاب.. ومن عجائب ذلك قصة الحافظ أبي العلاء الحسن بن أحمد بن سهل الهمذاني العطار (ت ٥٦٩هـ): أنه كان مرة ببغداد، ونودي بالمزاد على كتب لابن الجواليقي بمبلغ كبير، فاشتراها، على أن يوفي الثمن بعد أسبوع، ولم يكن لديه ثمنها، فخرج إلى طريق همذان، فرحل، إلى أن وصلها، فأمر بأن ينادى على داره بالبيع! فلما بلغت السعر الذي اشترى به الكتب، قال للمنادي: بيعوا، فقال له المنادي: تبلغ أكثر من ذلك، فلم ينتظر خشية أن ينتهي أمد وفاء ثمن الكتب، فباع داره، ثم ركب إلى بغداد، فوفى الثمن، ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة!

ولما توفي هذا الإمام رؤي في المنام وهو في مدينة جميع جدرانها مبنية بالكتب، وحوله كتب لا تحصى، وهو مشتغل بمطالعتها!! فقيل له: ما هذه الكتب؟! قال: سألت ربي أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا، فأعطاني!!

من كتاب: نصائح منهجية

الشريف حاتم بن عارف العوني

قال الجاحظ:

من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عُشّاق القِيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسَه باللبن على عياله ! وحتى يُؤمِّل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه. [الحيوان ١ / ٥٥]

الفصل الأول

لولا قبضة أخيها علي يديها لتوقفت قليلا أمام بعض البنايات تتذكر طفولتها، في شوارع طالما اشتكت من زوابع ترابية أثارتها ومثيلاتها الصغيرات آنذاك، فاللعب لم ينقطع يوما والعبث بمقتنيات الجيران كان متعة لا تضاهيها متعة.. الأشجار تناطح عمارات الحي، والزحام كان سمة المكان، الأهالي تحسبهم جميعا وإن كانت قلوبهم شتى.. حالة رائعة وطفولة مختزلة بداخلها كانت تأبى مجرد مداعبة رأسها منذ وقت طويل مضى، إلا بعض المشاهد دائما ما تلاعبت بعقلها وأثارت جنونها كأنما مسها الشيطان.

١٠ سنوات لم تر مسقط رأسها.. تسير في الشارع وقد تبدل الحال كثيرا.. ليس كما تركته أول مرة؛ يخلو من السيارات والباعة الجائلين.. وملامح الناس التي تغيرت بالمشيب أو البلوغ.. لم تلق السلام على من صادفها.. حتى من تعرفت عليه وعرفها.

ابتلعهما مدخل المبنى القديم، وكلما صعدت درجة من درجات السلم ارتعدت كمن يُساق إلى حكم بالإعدام.. في الطابق الرابع تلك الشقة المليئة بالأضواء والضوضاء سابقا سكنها الآن هدوء لا يخلو من دموع حارة يسكبها الموجودون إلا هي، فقد احتفظت بنقاء عينيها لتتفحص الأركان وتمعن النظر فيمن حولها من جماد وبشر.

وسط إضاءة خافته تأتي من شباك غير محكم الغلق مطل على الشارع الكبير.. يتمدد جثمان علي طاولة الطعام.. ليست وليمة هذه المرة كما سلف من عزومات تجتمع الأسرة عليها ليخلفوا وراءهم أطباقا كما لو كانت علي سيرتها الأولى.

عجوز ترتكن إلي حائط بعيد، تبدو ككتلة كبيرة من اللحم قضت أكثر من ستة عقود من عمرها لتزيد عليها من الشحوم، تراقب الجميع عن كثب.. لا تنطق إلا قليلا بكلمة واحدة.. أخويا.. وتدوس بما ملكت من قسوة في ساعدها على أخرى نحيلة، أجلسها سوء حظها إلي جوارها.

اقترب "وليد" يجر أخته مقبلا علي جثمان والده ليمنحه قبلة لم يحصل عليها منذ فرقتهما المشكلات الأسرية على مدار الأعوام العشرة، عاش خلالها في

العباسية بصحبة والدته وثلاث شقيقات بعيدا عن الأب الذي هرب من زخم الأحزان إلي بيت العائلة في الهرم.. لكن عمته البدينة وبجوارها زوجة العم بادرته معاتبة: انتم لسه فاكرين أبوكم؟

ثوان، ولم تسمع سوى نواح النسوة بعد علمهن بخبر الوفاة، ليتطاير ستار الأحزان علي كل الأحياء.. قدماها لم تحملاها طويلا لتستقر كقطعه لحم تمكن منها جزار ماهر تركها لتوه لمن يبتغي الشراء إلا أنها لم تكن معلقة علي خطاف حديد صدئ في هواء تطارده الملوثات ويتهافت عليها الذباب قبل الجوعي، فالبلاط الرطب في منتصف صيف قاس كان بردا وسلاما علي جسد يحترق بالأسى.

رغم أن جميعهم يتناول الدواء أحيانا عن جهل وأخرى بالوصفات إلا أنهم حاولوا إظهار مهارتهم في فنون الطب لإفاقتها، ليحولوها إلي فريسة سهلة المنال لكل يد امتدت بسوء أو بغيره.

مؤخرا كاد الأسطى سعيد، نحيف الجثمان كأنه عصا طويلة لا يظهر من وجهة الدقيق سوي شارب كثيف تمني لو يصلح شعره ليغطي تلك الرأس الصلعاء المستور ببضع شعيرات بيضاء، أن يغيب عن وداع أخيه لينتظره في العالم الآخر بعد حفنة من الحبوب حصل عليها من أحد زبائنه عندما اشتكى من عدة أعراض مرضية، وأنقذوه بغسيل سريع للمعدة في مستوصف شعبي قريب من المنزل فعاب عليه الطبيب فعلته بما تيسر من السباب.

بضع قبلات طبعها الكارهون قبل المحبين علي وجه لم يبتسم يوما، ليذهب بجسد ضخم إلي عالمه الجديد، تمنوا لو رآهم الآن بعينيه التي كثيرا ما رمقتهم بالكراهية، وأحيانا بالحقد.. منذ عشر سنوات لم تكن هذه العائلة كما كانت من حب ومودة جمعت أفرادها بخلاف مشكلات جمة تربصت بهم وتبدل الحال من الحب إلي كراهية مدللة يربونها بأنفسهم.

«سلمي» مضرب المثل في العقل والذكاء بين ذويها، تميزت بحبها الشديد للقراءات المتنوعة في الأدب والفن والكيمياء والطب، لا سيما النفسي، أصيبت مؤخرا بمرض نادر يسمي «ببلومانيا»، Bibliomania، وفي مرضها تأبى إلا أن

تكون مميزة.
المصابون بالببلومانيا، يتميزون عن غيرهم بحبهم الشديد للكتب، فهم يعشقون شكلها، ورائحتها، وصوت صفحاتها، كما أنهم مبالغون بخوفهم الشديد عليها، فهم يخشون عليها من الماء، ومن النار، ومن عبث الأطفال.. لكن هذه ليست علامات على الإصابة بالمرض بقدر ما تعتبر صفات إيجابية يتميز بها هؤلاء الببلومانيون عن غيرهم، لكن المصابين بالببلومانيا حريصون على تجليد كتبهم بجلود غير مألوفة كجلد الفيل والثعبان والحوت، وبلغ بأحدهم الهوس، بحيث جعل غلاف كتابه ملفوفاً بجلد إنسان، وهذه حالات شاذة جداً!
والببلومانيون- من الحالات الشاذة - قد يأكلون الكتب، وهذه حقيقة قيل إن أحد المصابين بهذا المرض، أقام لأصدقائه وليمة عشاء، قدم خلالها حساءً لذيذاً ممزوجاً بأوراق مغلية من ديوان أحد الشعراء!. والأغرب هو أن بعضهم قد يستطيعون معرفة المالك الأول للكتاب إذا كان الكتاب مختلفاً فيه، وباستطاعة الواحد منهم أن يتعرف على عمر الكتاب من خلال صوت الورق، بل ولمسها أيضاً، وتمييز ذلك من خلال نظرة سريعة في الكتاب.
أحيانا تعود إلي نفسها.. تتذكر أحداثا مؤسفة ألمت بمن حولها.. حتى إنها انتفضت ذات مرة مبتلة الجسد كمن خرجت من رحم أمها، مخمورة العقل، مشبعة النفس بلومة وحيرة بعد أن داعبتها ذكريات أختها الكبرى «شيرين»، وتورطها في علاقة مع رجل يكبرها بنحو عام كامل، ظنت أنه النسيان والملاذ، فزوجها خطفته نداهة الكسب والثراء من حضنها ومن أطفاله الأربعة.
أتيحت شيرين للطامعين طردا من جنة الأهل والزوج بعد أن كُشف أمرها بطفل من السفاح حاولت استئصاله كورم خبيث بإحدي عيادات النخاسة، لكن سوء حظها وضعها بين رحى تساؤلات المغترب العائد بعد سنوات من جمع دراهم الخليج، جائع يهفو طوال الطريق لمائدة ليس بها سوى جسد شيرين لكن جرحا منعه من إشباع جوعته.
انتهى كيان الأسرة مابين شهوتي الجنس والمال ويضيع بذلك أربعة من الصغار

في شوارع طحنت الكبير من قبلهم فكيف بهم؟!
اتخذت لنفسها مسكنا متواضعا في منطقة شعبية اشتهرت بعض شوارعها بالجريمة وتجارة المخدرات.. أبو قتادة أو بحسب نطق سكانها «ابو قتاته»، تقبع مثل «دمل» مليء بالصديد منذ عشرات السنين لايجرؤ طبيب علي حكه، فالضرورات قد لا تبيح المحظورات أحيانا.
مساكن متلاصقة وأسطح تملأها المخلفات والزجاجات الفارغة والكراتين وهي ثروة لدي بعضهم، لا تبعد كثيرا عن جامعه القاهرة ومنطقة بين السرايات والدقي وشارع السودان من الأمام، وفيصل والهرم من الخلف.
المشتاقون إلي القاهرة من أبناء الأقاليم بقصد العلم أو العمل تخطفهم مساكنها رخيصة الثمن، فالغرفة الواحدة في أحشائها ٦ أسرة مقابل مائة وخمسين جنيها للسرير الواحد.. علب أسمنتية تحوي بداخلها القطط البشرية الضالة، يصلون إليها من شوارع أشبه بالسراديب الفرعونية لا ينجو منها إلا من فك شفرتها بمصاحبة أشقيائها وشيوخها من حاملي اللقب فقط، متصعلكا يوميا داخلها في فتح المطواة قرن الغزال وما تيسر من الخرطوش.
في شارع أشبه بخندق الثعبان مجاور لشارع الجمعية.. استقرت شيرين وأبناؤها الثلاثة عندما فرط فيهم الأب «الطبيب الشاب» عائدا من حيث أتى، وقد تبرأ من بنوة الصغار، الذين تحولوا إلي أداة لخنوعها الآن دون رغبتها بعد أن لمعت في عين صبحي، وهو سائق مفتول العضلات غزير الشعر مثل غوريلا هربت لتوها من قفص منعها من متعة الحياة بعد أن سئم نسوة غريبات لجأن إليه برغبتهن طمعا في بقايا طعام أو فكة ستلقي بين فروجهن عقب عملية شاقة من الشحن والتفريغ الجنسي أو ربما طمعا في ظل الرجل الذي يهابه الجميع في المنطقة.
ملامح شيرين الهادئة الجميلة سحرت السائق.. كلما رفع إلي فمه حبة من «الفراولة» المعروفة في جدول المخدرات بـ»ترامادول» تلذذها ممصمصًا شفتيه فطالما تلامست شفتيه بلونها القرمزي، لمع جسد شيرين ذات الخامسة والثلاثين وقوامها المتماسك يداعب رجولته.

نال مراده بجرأة الكيميا والدخان الأزرق دون مقاومة منها خوفا علي الصغار الذين رمقتهم بطرف عينيها نياما، حين انكب عليها ك»طالوقة الجاموس» في إحدي زرائب الريف لتنتهي مومسا بلا أجر !!

صرخت الأم بعد ضياع أكثر من ساعتين في المطبخ، لتتذوق الأرض ما صنعت بعد أن أطاحت سلمى بالمائدة وما عليها مما لذ وطاب من طعام أفقد الأب صوابه، مفجرا قاموسًا من الشتائم كادت تتطور إلي ضربة موجعة علي وجه دقيق التفاصيل، حاد الملامح، يكفيه لطمة واحدة حتي يتبخر من احتكاك يد قوية غليظة مع وجهها، إلا أن "وليد" دافع عن شقيقته بجسد ضعيف مزحزحا عنها العذاب ليدخل في حديث مطول مع والده.

- مش شايف هي عاملة إزاي؟

= دي بتستعبط.. لسه كانت قاعدة طبيعية.. إيه حصل يعني؟

- أنا لاحظت بتغيرها الفترة اللي فاتت ومينفعش نضغط عليها عشان ما تتعبش أكتر.

= إحنا مش هناكلها يعني لو فضفضت وقالت فيه إيه بدل اللي بتعمله فينا ده؟!

- معلش.. شوية وهنفهم مالها.. بس تهدي شويه.

= هي بتعمل كدا ليه؟

- مش لازم نسكت.. الموضوع بقي صعب فعلا.

بوادر المرض بدأت تظهر بشكل واضح علي جسد سلمي الضعيف.. شفاه لا تتحكم بماء الفم المتساقطة بلا وعي.. وعينان تتسعان بلا توقف.. ويد تلتف حول بعضها وتتشابك في إحكام غريب.

هياج أصاب البيت الهادئ وأصحابه، ما بين صرخة هنا وتكسير هناك، إذا بالأب يصرخ:

= سعاد.. إلحقي بنتك شكلها اتجننت

- سلمي مالك؟! سلمي!

= قوليلها متخافش خلاص.. متمتما مع ابتسامة يعلوها الغضب والاستهزاء:

"إيه يعني البلاط أكل أكلنا".

تمكنت والدتها من تهدئتها بحضن دافئ ولمسات حنون علي رأسها، إلا أن الجسد لا يزال متشابكا، كأن علبة غراء تمكنت من مسامه، ما أثار مخاوف الأم علي ابنتها البكر، فهي صغيرة حتى بعد أن بلغت من العمر الثلاثين، وكثيرا ما تمنت رؤيتها عروسًا تتزين بها الكوشة التي كلما اقتربت منها باعد الحظ والظروف أيضا بينهما بعد ثلاث خطبات باءت بالفشل.

عندما تكررت أفعالها الصبيانية غير المعتادة وتحملت تبعاتها لأكثر من ستة أشهر، لم تجد الأم مفرا للذهاب بها إلي أحد الأطباء النفسيين، المتخصصين في تقويم السلوك، لكن الدكتور سمير يتبع أساليب غريبة في التعامل مع مرضاه، إذ طلب منهم الذهاب إلي المنزل بعد جلسه قصيرة امتدت لنصف ساعة.. تعجبت الأم من مطلبه لكنها قبلت في سبيل التخفيف عن سلمي.

أسرع سمير نحو سيارته الصغيرة أسفل العيادة ليذهب بهما إلي البيت فبعد أن ركبت سلمي ووالدتها انتظر هو قليلا حتي يتمكن من دخول السيارة، فهو لم يكن ذلك الطبيب رشيق البنية، فبطء حركته كان مجبرا عليها من كثرة الشحوم علي جسده الطويل، لكن وجهه يدعو للراحة رغم الشارب الأبيض المتشابك مع ذقنه متوسطة الطول.

صعدوا بضع درجات من السلم في انتظار الأسانسير، إلا أن سمير قد أفزعته كلمات جاءت من خارج العمارة علي لسان رجل قصير القامة يرتدي جلبابا، يبدو من هيئته أنه البواب.. مش شغال يا بيه.

نظر إلي السيدة وابنتها وابتسامة عريضة ترتسم علي وجهه ولسان حاله يقول "تقريبا العمارة وسكانها في حاجة إلي طبيب دائما.. المهم قاعدين في أي دور؟

- مع ابتسامه مغلفة ببعض التوتر قالت سعاد: الرابع.

= دا أنا كدا هخس بدري..دلوقتي عرفت سر رشاقة سلمي.

- ياريت تكون رشاقة يا دكتور مش تعب؟!

= معايا متقلقيش.. ياما مرت عليا حالات أصعب وقدرت أفك ألغازها.

يبدو أن كلمة لغز أثارت غضب سلمي حتى رمقته بنظرة حادة لم يفهمها،

إلا أنه واصل الصعود مقررا عدم الكلام بعد أن تقطعت أنفاسه ولم يصل الطابق الثالث بعد، فلجأ إلي درجة من درجات السلم يلتقط أنفاسه ثم واصل مسيرته نحو الأعلى.

أخيرا.. قالها ولم ينتظر إذن الدخول فقد استقر علي أقرب كرسي بجوار باب الشقة والعرق يتصبب منه كأنه حصل علي دش دافئ أجبر عليه ونال من ملابسه.

- تشرب ايه يا دكتور؟

= أي حاجة تنسيني خناقة السلم.

- ساقع؟

= يا ريت!

لحظة أن رفع الكوب كان قد نفد.. وعلي منضدة في أحد أركان الشقة تجلس سلمي تراقبه فقط.. فسألها عن غرفتها دون إجابة، حتي أشارت سعاد إلي غرفة بجوار المطبخ، فأسرع إليها طالبا أن يدخل منفردا وبعد خمس دقائق تصطحب ابنتها إلي الداخل.

دولاب صغير يحمل متعلقاتها الشخصية من ملابس وأوراق رغم أن لها مكتبا داخل الغرفة لكنه قد أعطاها العذر في ذلك عندما رأي كمًا هائلًا من الكتب يستقر علي سطح المكتب وداخل الأدراج.. وقف سمير أمام ستارة سوداء علي شباك الغرفة، متعجبا من لونها الداكن الذي يمنع دخول الشمس إليها.

رمي بنفسه علي سريرها الصغير إذ بالأم تدخل وفي صحبتها سلمي دون أن يستقيم احتراما لهما لكونه ضيفا غريبا عن أهل المنزل.

- جميلة أوضتك يا سلمي، بس مش غريبة بنوتة صغيرة تميل إلي العزلة وتعشق الظلام؟

تمتم بشفتيه عندما لم تجبه إحداهما.. اعتدل ونظر إلي سعاد طالبا تجهيز الغداء.. هي لم تفهم لماذا يفعل كل هذه الأمور الغريبة علي رجل مثقف يعرف كيف يتعامل بشكل لائق مع الناس، لكنها قررت الاستجابة إلي كل طلباته.

جلسوا علي المائدة وقت أن حضر الأب الذي يعرف الطبيب جيدا وطريقته الغريبة في العلاج.. بدأوا يتناولون الطعام إلا هو فقد انتظر أن تأكل سلمي، إذا به ينتفض ليمسك بيديها وينهرها بعنف بعد أن نثرت ما يليها من طعام بشكل عشوائي علي الأرض وهي تحاول أن تقذفه إلي فمها الذي فتحته كأنه حفرة عميقة ورأسها إلي أعلي.

= مش هتاكلي بالأسلوب ده.. فما كان من الأب إلا أن طلب منه بلهجة حادة عدم القسوة عليها:

- لو سمحت يا استاذ.. دي طريقتي في العلاج وانا عارف بعمل إيه.

= بس ده مش اسلوب برضو!

- لازم أخليها تتعود علي الأكل بشكل صحيح ومتعملش الحركات اللي بتعملها بوشها دي.. هي محتاجة تتعرف علي الأشياء من حولها بشكل جديد.

= لكن إحنا لسه معرفناش عندها إيه.

- مقدرش أشرح لك حالتها بشكل تفصيلي دلوقتي، لكن هي مصابة بمرض اسمه التصلب المتعدد

= وده يعني إيه يا دكتور وجالها منين؟

- يعتبر مرض التصلب المتعدد " Multiple Sclerosis " من أمراض المناعة الذاتية وأيضاً من أمراض الجهاز العصبي المركزي.. ويقوم جهاز المناعة متمثلاً في كرات الدم البيضاء بمهاجمة الجهاز العصبي المركزي وتحديداً تُهاجم تلك الكرات طبقة المايلين المُغلفة للأعصاب، ويتسبب هذا الهجوم في تأكل طبقة المايلين مُخلِّفاً لويحات مُتصلِّبة تُعرقل وصول الإشارات العصبية من المخ إلى أجزاء الجسم، وبحسب المنطقة المُصابة يظهر العرض على جسد الإنسان، وينتشر التصلب المتعدد بين النساء أكثر من الرجال، ويستهدف الفئة العمرية بين ١٥ إلي ٤٥ سنة.

وأول من قام بتدوين أعراض المرض هو البريطاني روبرت كارسويل أستاذ علم الأمراض، ساعده في ذلك أستاذ التشريح الفرنسي جون كروفييه، لكنهم لم يربطوا هذه الأعراض بمرض بعينه إلي أن جاء طبيب الأعصاب الفرنسي جون

مارتن شاركو وقام بتشخيصه كمرض مستقل وأسماه وقتها بـ (sclerose en plaques)، ويعتمد تشخيص مرض التصلب العصبي المتعدد على عدة معايير فليس هناك صورة محددة تُبين للطبيب أن المريض مُصاب بالتصلب المتعدد.. وسبب المرض، هو هجوم الجهاز المناعي على الجهاز العصبي المركزي.. لكن ماسبب ذلك الهجوم؟ حتى الآن مازال السبب مجهولاً، يجب أن نعرف أن هذا المرض ليس معدياً، ولم يثبت أنه وراثي حتى الآن، لكنه مزمن ولم يُكتشف له علاج شافٍ.. والأدوية المتوفرة بمثابة تدابير واحتياطات تخفف من المرض، وتنقسم إلى علاج الهجمة حيث يعطى الكرتيزون للمريض وقت حدوث الهجمة فقط ويساهم في الشفاء من الهجمة أو على الأقل التخفيف من حدتها، ولابد من التنبيه أن الكورتيزون علاج آني لا يصلح لمعالجة أعراض المرض.

وأدوية تُدعى "مُعدلات المناعة" تعمل على تغيير في طبيعة التركيب المناعي، للتخفيف من عدد الهجمات وحدتها.. وهناك عدة أعراض تصحب المرض من تشنج ورجفة وضعف الأطراف واكتئاب لذلك فإن الكثير يواجه صعوبة في فهم المرض، لعدم وجود صورة محددة وثابتة، إذ يعد مرض التصلب المتعدد حالة مُتقلبة تختلف من شخص لآخر، وحتى في الشخص الواحد تتقلب أوضاعه من وقت إلى آخر، لذا يُسمى بـ " ذو ١٠٠٠ وجه ".

= إيه ده.. حالتها صعبه للدرجة دي؟

- مقدرش أحكم دلوقتي.. بس عشان أقدر أعالجها بشكل كويس لازم أقعد معاكم في البيت لمدة ٣ شهور.

= إزاي يعني رجل غريب يقعد معانا في البيت حتي لو كنت انت يا دكتور؟!

- ده الحل الوحيد.. لازم أعيش حياتها واشوفها في كل حالاتها.

وجد منها ما يجعله يثق في قدرته على علاجها، هذه المرة لم تعترض علي توجيهاته، تستجيب بالصمت دون إثارة الشغب كما يحدث في كل مرة، فقرر أن يتبع معها أسلوبًا آخر، ما دامت ارتاحت إليه وتجاوبت مع أوامره الصارمة.. ضمها إليه في مشهد تعجب منه الوالدان بعد أن تبخرت القسوة

حتي فاجأهم برغبته في الخروج معها دون اعتراض منهما بعدما لمساه من تطور نسبي في حالتها.

تأجلت فكرة الخروج فترة أخري، بعدما أبدته سلمي من عناد مجددا.. فبعد شهر كامل من تكسير الأطباق وهدر ما بها من طعام وسوء حالتها أكثر مما كانت عليه رغم تجاوبها السابق، لم تعد أسرتها تتحملها يوما تلو الآخر، انقلاب حالها زاد انفعال سمير، وهو من جاء خصيصا لتقويم السلوك، فاصطحبها إلي إحدي الحدائق القريبة، ووسط الأشجار وجدت نفسها وحيدة دون رفيقها.. فقد وقف يراقبها من بعيد وبينما يتوقع كل فعل ستقوم به وجدها تفعل عكس توقعاته كأنها تعاند فيه ما قضي عمره يتعلمه.

بدأت الشمس في الرحيل واليأس لم يطرأ علي ذهنه طوال النهار ربما أملا في أن يجد ما يرضيه لالتقاط أحد خيوط العلاج ورغم ذلك كانت أمنياته منعدمه مع فتاه تركها بمفردها، فجعلت من عقله طاحونة لا تتوقف عن الدوران بحثا عن حبة ذرة خرجت عن طوع حجرها القاسي لتتمكن منها إعمالا بالمساواة في الطحن، لكنه لم يكن ذلك الحجر المشتاق إلي رؤية ضحيته تتحول إلي تراب تختلف ألوانه أو استخداماته فقد كفر بكل نظرياته، ما تعلم منها وعلمها للتلاميذ أو مريديه من قراء علم النفس.

تذكر كيف قبل والدها دخوله إلي المنزل واستقراره مع الأسرة فهمس إلي نفسه وقتها بعد أن صدمته جملة ربيع "انت راجل غريب ".. نعم ستظل تعتبرني غريبا طالما انقطعت صله الرحم بيننا لرغبتها الزواج مني، حتي تركت لك القاهرة بما فيها عندما رحلت عن دنيانا، كأن موتها يخبرنا بشئ لم نفهم المغزي منه إلي الآن.. ماتت رغبتنا مع موتها.. سنوات طويلة مضت وأنت في شرق الدنيا لا تفكر بمن هرب إلي غربها.. سلام بارد وقبلة أطفأت حرارتها غيرة عتيقة ربما شعر بها كل من استقبلني في المطار منذ ٧ سنوات.

إنها سلمي.. لهذه الدرجة أحببتها حتي أهديت ابنتك اسمها.. فراقها أوجعني كثيرا حتي قررت عدم الزواج من بعدها، لن أتركها تضيع هذه المرة وإن كانت ابنتك.

فاجئها بقبضة حديدية علي يديها ليضعها عنوة علي كل ما حولها من نبات أو كائنات حية...أشعري.. انطقي.. قولي أي شئ

دي اسمها وردة زي حب مفتح خايف يدبل أو يموت.. ودي شجرة بتكبر في حضن أرض دافيه.. ودي فراشة فرحانه بحريتها...أنتي فين ما تموتيش جوا نفسك دوري علي سلمي.. أطرديها بعيد عن جسمك الدبلان المستسلم للمرض لأني عارف إنك أقوي.

ضاع طيف حبيبته فهدأ صوته المرتفع عندما رأي مريضته الشابة قد أصابها الهلع، أسرع إليها بحضن دافئ وأنفاس متقطعة لرجل عاد إلي الوراء سنوات طويلة حتي أنهكته الذكريات.

وقف سمير يراقب خطوات صديقه القديم ربيع.. يحاول ترجمة إيماءاته وملامح وجهة التي بدت عليها القسوة.. أقل من ثلاثين ثانية، وأسدي ربيع خدمته إلي صديقه القديم بأن فك طلاسم ما أحتار في فهمه.

سيادتك فشلت في علاج بنتي

وإزاي قدرت تحكم علي بالفشل

حالتها في النازل

تقريبا انت نسيت انها بدأت تستجيب للعلاج

عن أي علاج تتحدث وهي لم تأخذ برشامة واحدة

العلاج السلوكي او النفسي قد لا نحتاج معه للأدوية

أنا مش في حصة داخل فصل.. دي بنتي وأنا حر فيها

لكن مقدرش اسيبها، ممكن حالتها تتدهور

أرجوك لو سمحت لحد هنا وانتهي النقاش، تقدر تلم كتبك وتتفضل

نظرات حادة جمعت عيونهما، إذا بعين ربيع تلمع وكأن نشوة الانتصار خرجت رغما عنه، حتي ازداد غضب سمير الذي اختار أن يتكئ بيديه علي أحد الجدران خلفه وبينما رأسه بين يديه وظهره إلي ربيع، حتي عاد إليه مره أخري.

أنا موافقتش عشان مراتك تبقي بنت خالي، أو أنت صديقي اللي كان أخويا في

يوم من الأيام.. بنتك محتاجة تتعالج بجد.. انسي أي خلاف حصل بينا.
انت مش بتدور علي مصلحة مريضة عندك.. أنت تخيلتها سلمي اللي ضاعت منك.
مقدرش أنكر.. كلامك صح، بس.....
بس إيه يا دكتور.. بطل بقي شويتين الإنسانية والرومانسية بتوع زمان دول.
يا ربيع اسمع وصدق أنا عايزك تفكر بقلبك وعقلك، دي بنتك.
انتهي الكلام يا دكتور.
بينما انتهى من جمع كتبه وهم بالخروج من المنزل الذي لم يدخله إلا بسبب علاج سلمي وتوسلات والدتها بعد أن عاتبته علي تركها وحيدة دون سؤال... بدأت الأحداث تدور في رأسه كأنها شريط من ذكريات الحزن والفرح، مع سلمي الحبيبة والأخرى المريضة.
قبل أن تمتد قدمه اليمني لتتجاوز عتبة الباب، استقام بجسده مرة أخري موجها كلماته إلي ربيع.. سلمي كانت تقرأ كتابا ذات مرة وأخبرتني أنني سأبقى بيتا يتسع للجميع حتى ولو لم يبق فيه إلا مسمار لأن الأرواح تعلقت في ذلك المسمار فبقيت أنا بيتا ووطنا وحياة وشاهدا ربما على قيامة جديدة لكنها ستتأخر قليلا.
أما أنت يا صديقي حتي لو اصبحت ساحرا ربما ستنشر ما تبقى من غبارك السحري على ما تبقى من هذه الأرض، لتستيقظ، ووقتها من الصعب أن تحافظ على ما تبقى من إنسانية لديك، لأنها ستكون معجزة.
نعم.. كل يوم سأصبح وطنا طالما سكنت ذاكرتي وقلبي، فأنا أشرب كل الأحزان وأبصقها لتصبح حلما يبني بيتا وكنت لا أعرف أن للموت أحرفا تكتب بحفر عميقة على جدران أرواحنا وأجسادنا.
انت لسه عايش في الوهم يا دكتور.. محدش بيندم أبدا علي فراقك حتي بص، شوف المريضة بتاعتك تبتسم لفراقك.
هي بتضحك عشان انت رجعتلها فرصتها للهروب إلي نفسها مرة تانية
هنبدأ فلسفة من تاني.. شكرا يا دكتور وخد الباب في ايدك

هتندم يا ربيع وهتشيل ذنبها في رقبتك.
ضحكات طويلة تقطعها الدموع الحارة وحركة غير منتظمة داخل غرفتها الصغيرة التي احتضنت جميع ألعابها وكتبها المتطايرة من يد سلمي الغاضبة مع خروج سمير من المنزل، حتي عادت إلي رشدها المخبأ تحت شطحات المرض.
أنا فشلت.. إزاي؟.. كان المفروض إنه يقعد معانا أكتر من كدا، مش ده اللي كنت عايزاه.. كنت عايزاه يموت صديقه القديم كل يوم من الغيرة لما يشوف غريمة القديم خاطف حبيبته، كان لازم يتعذب شويه.
أنا مجمعتش كتب سمير في علم النفس عشان الحكاية تنتهي بالشكل البايخ ده، المفروض إن بابا كان يشك أن سمير جاء ليخطف زوجته وابنته بعد أن تمكن من حبيبته في الماضي، فاختياري لسمير كان لحساسية هذا الموقف بعد أن عرفته من مذكرات صديقه في أحد أدراجه السرية داخل مكتبته واعتقد أنها الشئ الوحيد الجيد الذي أفادني به.
حبه للقراءة جعلني أعرف حكايته القديمة لذلك كان لابد أن اتقمص دور المريضة بشكل محترف وأختار مرضا غير معروف إلا في كتب البروفيسور سمير، وهو الوحيد من سيهتم بذلك المرض ليثبت صدق نظرياته العلاجية حتي لو كان في بيت ربيع صديق العمر القديم.
فعلا أنا مش مريضة.. عقلي أكبر من فكرة المرض فأصحاب الثقافات يصنعون الوهم لمحدودي الذكاء ليعيشون بين خيوطه المترهلة حتى تشتد مع كل فعل لهم ليختنقوا في النهاية كما نشاء نحن.. وإلا لماذا كثرة الاطلاع علي مختلف الكتب من شتي التخصصات، حتي أن سمير ذلك المتخصص المعروف في علم النفس لم يتمكن من معرفة حقيقة مرضي لأنني استخدمت نظريته في اللعب علي وتر الماضي المربوط بغرور الرجل علي شماعة ذكرياته المتآكلة لأجعله بهلوانا في سرك لا يتحرك إلا بأمري.
ذلك المغرور، معاذ.. خدعته وظيفته في الجامعه ووسامته ليتلاعب يوميا بقلوب طالباته اللائي يخضعن له كأنه يسحرهن ليتحول إلي مصاص دماء

عذريتهن دون رحمة لهن أو لعائلاتهن، رغم انه متزوج وميسور الحال ولا يحتاج إلي مثل هذه الجرائم غير الانسانية.. فكما لم يرحم قلوبا بريئة وقعت في شباك عيونه وكلامه المعسول وهيبته كمعيد داخل حرم جامعي لم يحترم حرمته وانتهك حريمه.. كان من المنطقي أن أدافع عن نفسي، فالهجوم خير وسيلة للدفاع وما تبقي من زميلاتي ليس كثير حتي يأتي دوري يوما ما رغم أنني أتلاشي الاحتكاك به ودائما أغيب عن محاضراته، فما تعودت الانتظار يوما.

معاذ كان شابا متسرعا ولم يأخذ من الدنيا سوي نزوات حصل عليها بالمكائد والمكر، فقد اشتد عودة بثروة والديه، يبدو كطفل في الثامنة والعشرين من عمره، يري الفتيات "دمًى " يلعب بهن كيفما شاء ليستبدلهن واحدة تلو الأخري.

لن أتكلف عناء المكيد له.. يكفيني ان ابتسم حتي يلهث كالكلب يبحث عن ماء في جوف صحراء.. لكن ما يجعلني اختلف عن أي أنثي أخري قد تمكن من مسامها وانصاعت لرغباته الجنسية علي وعد بحب أو زواج.. لن أكن حلقة جديدة في سلسلة غرامياته وسأجعله ينام علي وقع كلماتي ويصحو علي سراب صوتي.

لم أخبر أحدا بما سأفعل فحينما اتفقت مع زميل لي أن نتجول في الجامعه وجدها غريبة لكنه لم يتردد في القبول، فقد كان وقت مجئ معاذ ليلقي محاضراته كأنه صياد ماهر يصوب لسانه كبندقية نحو هدفه الجديد، فما أن رأيته اقبلت نحوه وصديقي.

الطلاب يلتفون حول فتاة انتهت لتوها من صفع رجل علي وجهة، تبين فيما بعد أنه وجه معاذ

انت طلعت طالب معانا في الجامعة كمان يا حيوان.. انت تتحرش بيا في الشارع؟

وقال صديقها وهو ممسكا به.. هسلمه للأمن.

بعد دقائق من السب وتلفيق الاتهامات، تنفس معاذ أخيرا وقد ابتل جوفه

ببضع نقاط من ماء تبخر من شدة الصفعة والمفاجأة معا.. أنا الدكتور معاذ يا كلاب.

سيطر رجال الأمن علي الموقف واصطحبوا سلمي وصديقها إلي مكتبه بعد أن رفض إنهاء المشكلة بعيدا عنه لرغبته في الإشراف علي حكم إعدامهما بنفسه بعد ما ناله من إهانه، إلا أن سلمي تراقصت في عينيه.. هي صيد ثمين لأمثاله نادرا ما يجد مثلها.. فتاة صعبة المنال تدافع عن نفسها ولا تفرط في حقها تجاه رجل لا ذنب له إلا أن ابدي إعجابه بها غصبا عنها.

دي بقي حتة جديدة خالص.. ما دار في عقله كان ليترجمه علي لسانه لولا أنه تذكر وجوده داخل الجامعه وليس في إحدي غرز الليل التي تعود عليها فما كان منه إلا أن سألها عن اسمها وفي أي سنة دراسية.

سلمي وكمان عندي في أولي.. إزاي مش عرفاني وافتكرتيني طالب أو الحيوان اللي اتحرش بيكي.

عندي ظروف كانت بتمنعني عن الحضور ومعرفش حضرتك

ولا يهمك خلاص، المسامح كريم وانتي لسه في أول سنة مينفعش أعاقبك علي دفاعك عن حقك وكرامتك.

بجد يا دكتور مش زعلان؟

خلاص، محصلش حاجة بس ابقي خدي بالك.

من وقتها لم يعد معاذ يفكر في غيرها كما أنها لم تعد تفكر إلا في الانتقام منه بعد أن نجحت خطتها في الايقاع به وهي تدري من الحيل ما يجعلها تتفوق علي قبيلة من المستذئبين مثل معاذ وقد تربت منذ الصغر علي أكل الكتب حتي أشبعت بثقافات متنوعة وأساليب مختلفة في فنون التعامل مع نوعيات البشر.

صبر معاذ قد نفد بعد شهر من الواقعة وملاحقته لها بطيب الكلام إلا أن الحيرة والفشل في التهام فريسته الجديدة، اعترف لها كم يحبها وتملكها لعقله وما تبقي من قلبه، لكنها أظهرت خوفها علي مستقبله وكيف سيظلم زوجته بدعوي أنها أحبته أيضا ولا تقبل أن تهدم كيان أسرته، فقال إنه يفكر في

الانفصال منذ فترة بعد ٥ سنوات من الزواج بابنة عمة التي علم أنها حامل في شهرها الأول وقد طال انتظاره حتي يسمع تلك البشري، لكنه لم يقبل بذلك الجنين لإحساسه أنه جاء كعائق أمام الانفصال المزعوم.. رغم أنها أكذوبة فقد صدقها واختمرت في عقله حتي كاد لنفسه بمساعدة سلمي التي أوعزت إليه بوضع بعض أقراص "السايتوتيك " فيما تتناوله زوجته من طعام أو شراب للتخلص من الجنين، وبعد قرصين فقط كانت ضحيته تنزف وهو يبتسم بداخله، ليس لقتله طفل صغير لم يكتمل تكوينه في أحشاء أمه أو فرحا بدموع زوجته وصراخها التي تتلوي حصرة علي ابنها، متناسية ما بها من ألم، لكنه أخيرا شعر بأن سلمي تقترب من حضنه المسموم.

٤سنوات وهي تتلاعب به حتي تمكنت منه وجعلته يتجرع مرارة الظلم والندم وهو يدمر حياته عاما بعد الاخر حتي جعلته يقتل ٣ من أبناء كان يتوق شوقا لهم مستخدما السايتوتيك في التخلص منهم..

سايتوتك " cytotec " هي أقراص تحتوي على سايتوتك الميسوبروستول العنصر النشط، وهو نوع يسمى التماثلية "البروستاجلاندين"، يتم استخدامه في العلاج والوقاية من قرحة المعدة والأمعاء "القرحة الهضمية" لكن تم اكتشاف تأثيره علي عضلات الرحم واستخدم للاجهاض ولا ينبغي أن يستخدم من قبل النساء الحوامل باستثناء استخدام متخصص في إنهاء الحمل.

بعد أن تمكنت سلمي من معاذ وانتقمت لزميلاتها تطوعا منها، لم تلتقيه بعدها لكن أخباره لم تنقطع عنها فكلما سمعت عن كسرته وتلاشيه لأي فتاة وقعت عينه عليها.. لا تتمالك نفسها من الضحك، فقد أصبح يتواري سريعا كأنه لص يخشي فضح أمره، فيكفيه أن يدخل بيته ليجد ضحيته تبتسم لمجيئه وهو يحتضنها ببرود كما لو أنها إحدي فتياته التي وضع يديه عليها بدعوي الحب وفي ضميره يختزن السوء لنهش جسدها.

كم احتقرته عندما جاءني مسرعا وعيناه تتسعان فرحا بنجاحه في قتل فلذة كبده.. أي عقل هذا سيقبل برجل مثلك لم يرق قلبه لجنين في رحم الغيب حتي يأمن علي نفسه بين يديك الآثمتين.

الفصل الثاني

كانت خطبتها الأولي شاهدا علي قصة حب كما لو كانت فيلما سينمائيا انتهى نهاية مؤسفة فتلك الفتاة مكتملة الأنوثة لم تتجاوز الثامنة عشر من عمرها آنذاك، قبلت الارتباط من محمود الذي تمكن من قلبها وعقلها بعد أن رآها عند إحدى صديقاتها في شبرا الخيمة.

دارت بينهما حكايات من الحب ظنت نفسها بطلة إحدى روايات الرومانسية متجسدة على شاشة الدنيا تزداد لهيبا مع زيادة المقابلات السرية عندما تعلمت فنون السرقة ولكنها سرقة من نوع خاص، فبضع ساعات من الدراسة كانت كفيلة لتتعلم فنونا أخري غائبة عنها، حتي تملكتها تلك المشاعر شيطانية الحس، جميلة المذاق التي جعلت منها فتاة لا تسيطر علي نفسها لمجرد نطقت اسم حبيبها.. البعض قد ارتاب في أمرها وظنوا فيها الظنون بعدما بدت كأنما لعب في رأسها السم الأبيض تنتظر سطرا من سطور الوهم يتسرب إلي منخارها ليطيح بآدميتها فيما بعد.

لم تخجل وقت شرائها لخاتم الخطوبة حتي تجمع شتات المحبين في بيت كانت ترضاه من البوص والقش طالما مع من أحبت.

زغاريد وطبول أعلنت خطبتها لمحمود بعد عام من الهيام واللهفة لتلك اللحظة.. فالجميع ينتظر حضور الوالد في الطابق الخامس ليبارك جمعهما إلي أن جاء عابث الوجه مصطحبا بضعة رجال دون أي حديث مع ضيوفه أو خطيب ابنته، فقد تحولت الابتسامة إلي عبوس ملأ الوجوه بعد أن حمل الرجال أثاث المنزل وهو معهم ليلقي به فوق إحدي سيارات النقل المنتظرة أمام العمارة القديمة وسط ذلك الحي الشعبي الذي تجمع أهله ينظرون في تعجب.

تساؤلات كثيرة دارت في عقل الأم وابنتها.. ماذا يفعل ذلك المجنون.. هل يسعي للفضيحة أم يرفض الخطبة بطريقة لم نعتد عليها.. لم تفق من تصلبها والتصاقها علي الكرسي إلا بلطمة علي وجهها سارع بها محمود الذي فشل كثيرا في إفاقتها.. خرجت مسرعة إلي الشارع لتجد عمها بجوار السيارة فعاتبته.

انت جيت ليه.. عشان تشجعه علي تدميري

أنا كنت رافض اللي هيعمله.. بس ده أخويا مقدرش اسيبه في ظروف زي دي برافو عليك.. ونعم الأخ

كانت علي يقين أن عمها لن يساعدها أو يخفف عنها هول ما يحدث أمام حبيبها وعائلته ورغم ذلك حاولت اللجوء إليه وعادت خالية الوفاض محملة بحسرة مغلفة بالهموم.. وقتها تيقنت أن محمود لن يكون زوجا لها، إلا أن حبها جعل من الامل سلاحا لإتمام الخطبة رغما عن الأب الذي عاد لينتقم من أبناء لا حيلة لهم في خلاف نشب بين الزوج والزوجة ويبعدهما عن أحضان كانت وقود الدفء الأسري لأكثر من خمسة وعشرين عاما.

ثلاثة أيام فقط وتتوج الفرحة في إحدي القاعات الفخمة.. قد تمحو ما حدث من قسوة.. فقد استعدت سلمي بفستانها لتهرب إلي حضن حبيب يحتويها ولم يبالي بما حدث من والدها.. فقط يكفيه تلك الفتاة.. متمسكا بها ليعيش في عينيها طوال حياته وينهل من فيض مشاعرها ما يقويه علي مواجهة أعتي الأزمات التي ربما أقسمت علي مطاردتهما مبكرا، بعد أن عاد الأب إلي المنزل في مساء اليوم التالي ليخبرهما أنه ألغي حجز القاعة.. دقائق يحاول الشاب أن يفهم ما يحدث ولماذا، مع ضحكات ترتفع شيئا تلو الأخر من أب ينتظر منه عكس ذلك، فعلي الرغم من سعادته بزفاف ابنته إلا أن سعادته تكتمل بمنعها من حبيبها وافساد فرحتهما.

حضرتك بتتكلم جد

اه طبعا.. وهي دي فيها هزار

ليه كل ده؟

مفيش جواز هيحصل

ممكن تعتبرها «شبكة» وهنتفق علي الزواج بعد كدا

يعني انت مصمم علي الارتباط بها

طبعا.. ولا يمكن افرط فيها

حتي لو عرفت انها بنت حرام ومش بنتي وإني رافع عليها قضية إنكار نسب وبينما لم يتردد محمود في إجابته "هفضل متمسك بيها".. اختفت ملامح

سلمي وتلونت وجنتيها بالإصفرار وغابت عن الوعي كأنها شجرة قوية اجتزت من فوق الأرض لتحتضنها صريعة الأسي.

ما بين أم وقفت متحجرة العينين وإخوة كأن علي رؤوسهم الطير.. أسرع محمود إلي حبيبته يحملها بين ذراعيه حتي عادت إلي رشدها بقبلة طبعها علي خديها ولمسه اشتاقت إلي حنانها منذ سنوات طويلة لم تعد تجد مثلها.

متخافيش.. مش هسيبك.. مش ممكن أفرط فيكي وانتي روح سكناني مقدرش اعيش من غيرها

لحظات من السكون تتأمل فيها وجه محمود.. ذلك الشاب الوسيم.. قوي البنيان، الذي يكبرها أنذاك بنحو ثماني سنوات.

حتي بعد اللي سمعته لسه متمسك بيا؟!

أنا حبيتك انتي وهرتبط بسلمي مش بحد تاني من اسرتها

متبعدش عني أنا محتجالك جنبي.. انت بقيت كل أهلي

قالت هذه الكلمات وتعرف أنها لن تكمل حياتها إلي جوار ذلك العاشق، فيكفي أن يتذكر كلام والدها لتتحول حياتهما إلي جحيم من الشك والريبة.. عنادها جعل منها فتاة قوية تحملت الضغوط النفسية والحياتية من حولها كأنها عصفور صغير تلاطمته الأمواج ورغم ذلك يعافر حتي ينجو من الغرق.. اصطحبته إلي الشارع في جولة محفوفة باليأس لإنقاذ فرحتهما، لعلهما يجدا قاعة أخري.

عام من الحب وآخر من الخطبة وما بينهما من أسي تحمله محمود، كتبت نهايته سلمي، كما كتبت نهايات أخرى.

ذات ليلة زف الأب خبر زواج ابنة أخته الكبري في قريتهم الصغيرة بريف محافظة الغربية.. لم تكن سعيدة كباقي أشقائها الذين وجدوا في السفر فرصة لالتقاط الأنفاس والهروب من سباق الحر والتلوث والزحام والضوضاء بالقاهرة.. فكثيرا ما كانت تكتفي بالسفر إلي عالمها الخاص بين سطور القصص والروايات، فقد رأت العالم شرقا وغربا، وعاشت تجارب الدول في هدوء السلم وضجيج الحرب

تركوا خلفهم نهار غريب وشمس خافته الضوء، وهواء غاضب يطيح بشرفة المنزل في كل اتجاه.. وبعد أكثر من ساعتين وسط الشارع تمكنوا أخيرا من الوصول إلي ميدان المؤسسة، ذلك المكان الي يزخر بالباعة الجائلين وتكدس البشر علي اليمين والشمال.

عجوز غريبة ترتدي جلبابا رماديا وطرحة تذكرها بالريف التي جاءت منه لكثرة ما نقش عليها من رسومات الشجر.. رأسها مدفونة في مشنة، تمكنت منها لثقل ما تحتويه من خيرات القرية.. تجري مسرعة خلف أتوبيس دلها إليه أحد الواقفين ليحملها إلي باب اللوق، لكن الهواء عبث بجلبابها ما أضحك الناس حولها بعد رؤيتهم لسروال داخلي يبدو بدائيا كأنها شخصية كوميدية في أحد الأفلام التي صورت للناس الريف بخلاف ما هو عليه.

كلمات الريفية العجوز، مازالت في أذن سلمي رغم هروب السيارة من خليط البشر مع السيارات داخل الميدان الذي يعد ملتقي الطريق الزراعي وما علي جانبيه من قري امتدت من الإسكندرية شمالا حتي مجمع المدينتين في المؤسسة جنوبا.

يا ولاد حد يشيل عني بدل ما انتم بتضحكو علي خيبتي..

ومع ارتفاع الضحكات من حولها، كادت دموعها تتساقط حزنا.. هو مبقاش فيه خشي يا أهل البندر ولا إيه

زخات من الأفكار تطايرت إلي ذهنها، كأن المطر خارج زجاج السيارة أمام عينيها يتساقط الآن علي رأسها.. ألهذه الدرجة تمكنت القسوة من قلوب الناس، لم تأخذهم الرحمة أو الشفقة بتلك السيدة، فماذا سأفعل وقت أن يشتعل الرأس شيبا أو بلغت من العمر عتيا.. وبينما ارتفعت بعينيها إلي السماء كأنما تراقب حبات المطر تنفرط من عنقود السحاب، تمنت أن تجد وليا يرشدها إلي نفسها التي ضاعت في غفلة من العقل وعدم إدراكه للاحزان التي نالت من صلابته.

علي مقربة من حفل الزواج، لم تسلم عيون سلمي من دموع حشدها راديو الميكروباص بعد أن تطايرت إلي مسامعها كلمات ذكرتها بحالها من حب ضاع

ووهم يتربص بها.. كلما ارتفع صوت المغني، شعرت كأنه يناديها هي بسمع أصوات كتير.. بتنادي ع الجراح.. بتنادي بصوت ضمير.. إيه يعني حبيب وراح... تمردت عيناها وانهمرت دموعها بغزارة نافست الأمطار بالخارج، فعادة ما يشعر المصدومين عاطفيا أن الحبيب هو الحياة بكل ما لها من معاني وما دون ذلك سراب.. انتهت الموسيقي ليعود الصوت يخبرها مجددا ما دام الحب باقي.. فيه نبض وفيه حياة.. غيره ألف ممكن تلاقي من غير وجع وأه.. مين اللي باع احساسي، مش قادر أعيش وأنساه.. ولا قادر أودع ناسي وأهرب لبلاد الله.. دا ظلم يا أحبابي.. والظلم مين يرضاه.. أصل اللي داق الوجع.. عمره ما بينساه.. في اليوم مليون قتيل.. والحب كان السلاح.. أهو مات حلمي الجميل.. أتألم عشان أرتاح.. لسه عاوز دليل إنك حبيب جراح.. مين اللي باع احساسي مش قادر أعيش وأنساه.

ودعت سلمى وأسرتها الطريق الزراعي متوجهين نحو القرية التي يفصلهم عنها طريق طويل من التراب علي جانبية نبات البوص الكثيف وترعة مثقلة بهموم القمامة وروث البهائم والتي يراها الباعوض والقوارض بيتا جميلا يجعلهم يحومون حولها كأنها حفل تجمعوا علي مائدته.. ثوان وامتلأت الأجواء من حولهم بالأتربة حتي اسرع كل من بجانبه زجاج إلي غلقه ومع غمامه صنعها الطريق لم يعد أمامهم دليل للوصول إلي القرية سوي تلك الأنوار البعيدة أمام منزل الفرح والكشافات الأمامية للسيارة بعد أن تآكلت أعمدة الإنارة دون صيانة منذ بضع سنوات.

توقفت الميكروباص أمام زغاريد النسوة المرحبة بضيوف البندر.. تحملت ما سقط عليها من قبلات وأحضان كادت أن تلتحم ضلوعها بفعل حميميتها.. هربت اخيرا إلي الطابق الثاني حيث خصص لهم من أجل الراحة فخرجت إلي الشرفة تراقب مداعبة الرياح للنبات وسط الحقول دون الاهتمام بباعوض يقبل يدها علي طريقته الخاصة بإنفاذ سنه إلي عروقها يرتشف قطرات طازجة من الدماء.

ذهب الليل في هدوء، وما زالت نائمة حتي اقتربت الساعة من الثانية ظهرا..

فتصحو وحيدة وقد تركتها أسرتها تنال قسطها من النوم بعد أن سهرت حتي خيوط النهار الأولي، الليلة الماضية.

صراخ وهلع وحركة غير معتادة في الشارع.. الناس يسرعون نحو نار تمكنت من منزل أحدهم، يحاولون انقاذ الماشية المحبوسة خلف ألسنة اللهب.. فلم يعد أمامهم سوي الترعة ليتزودوا منها ما يكفي حاجتهم من الماء لمواجهة الحريق، إلا أن رجلا وقف متحجرا علي شفا الترعة ولسانه قد هرب من بين فكيه دون أن يبالي به أحد.. خمدت النار وما كاد أهل القرية يلتقطون أنفاسهم حتي دبت الروح في جسد الرجل ليصرخ أخيرا بعد نظرات طويلة بينه وبين سيدة ملقاه علي ظهرها في الترعة.. الحقوني.. قتيلة

استوقفهم نفر من القرية في طريق عودتهم للقاهرة بعد أن تحولت ساعات الفرح إلي ليلة من كوابيس الحزن ليكشفوا لغز القتيله.

قال أحدهم إن»خميس» سكنه الشيطان وتملك حياته لم يجد وسيلة من الانتقام من زوجته التي نغصت عليه الدنيا سوى أن يقتلها...ذلك الجزار الأربعيني عرف عنه عنفه الشديد وغشه الدائم للحوم، تزوج بفتاة جميلة أعجبته أمضيا معا السنوات حلوها ومرها وعاشا حياة عادية لا هم فيها ولا مشكلات حتى عامين مضيا؛ حينما علم أن زوجته «حسنات» لا تستطيع معه صبرا، ثار بشدة وبدأت حياتهما تنقلب رأسا على عقب غضب يومي وصراع شديد.. وحينما أخبرها أنه سيتزوج بأخري تهدي له السعادة وتنجب له البنين غضبت هي الأخرى، وهددته أنها ستقاضيه وتحصل علي نصف ممتلكاته.. وهربت إلى بيت إخوتها تطلب حمايتها، بعد أن أبرحها خميس ما لذ وطاب من الضرب المبرح، فقاموا بضربه وإهانته أمام الجيران.

مرت عدة أشهر والشد والجذب بينهما لا ينقطع، كان هو في بيته وهي في بيت إخوتها، وحينما صدر لصالحها حكم قضائي بالحجر عليه راح يضمر الغل والغيظ في قلبه.

وبدأ في استخدام الحيلة للانتقام، مستغلا أنها ما زالت في عصمته متصنعا أنه يحبها، ولا يستطيع نسيانها متعللا أيضا بأطفاله الأربعة، وسعى بين الناس

يطلب وسطاء يتدخلون للم شملهما مجددا، ونسيان الماضي حتى صدقته وإخوتها وعادت إلى بيتها.

فهو لم ينسى وقت أن ذهب بها إلى طبيب نفسي وانتظر يراقبها من خلف الباب بعد أن ألقت بنفسها أمام الطبيب وقبل أن يسألها عن اسمها وشكواها بادرته وكأنها الفرصة التي تفك بها خيوط نسجتها في صدرها فتحولت إلى شبكة صياد وقد تمكنت من فريستها... تجدني كأضحية العيد مُقيدة بالحبال في غرفة نومي على سرير كثيرا ما كرهته بسبب تلك اللحظة، فهو لن يحصل على مبتغاه إلا بقيود تلتف حول جسدي.

.. هل يعني ذلك أنه زوج سادي؟

لا.. ولكن جسدي دوما يلفظه رافضا الانصياع لرغباته، أشعر وكأنه غريب يغتصبني وليس زوجا تربطني به سنوات طويلة وأطفال أكبرهم في المرحلة الثانوية، لذلك أطالبه بالقيد رحمة بي مع رغبته المتكررة ونفوري المستمر.

.. ومع ذلك تنجبين منه أربعة صغار؟

تعرف جيدا مبررات السنوات الأولى للزواج وأن الاثنين يستغرقان أعواما للتوافق والتفاهم، فالمرفهين يلجئون إلى الانفصال بعد عام واحد وربما أقل، ولكن من فقدت أمها وتأبى الحياة مع زوجة أبيها لن تطمع إلا في الاستقرار، حتى مضى العمر بين حلم يراودني وواقع ينهش ما تبقى من أنوثتي.

.. تلك عبودية من نوع آخر تستسلمين لها !

جاهدت كثيرا لكسر قيودها وحطمت بعضها بالدراسة التي حرمني منها الزواج فحصلت على شهادة جامعية مؤخرا ودخلت سوق العمل متأخرة، ولملمت بقايا نفسي ووجدت أن للحياة لذة أخرى غير الرباط المقدس والأبناء.

ظل يعاملها معاملة طيبة لفترة طويلة، حتى نسي الجميع أنه مازال يضمر غيظه وإجرامه نحوها.. استغل أحد أيام الصمت ليلتف بيديه القويتين حول عنقها ليتخلص منها للأبد، وسط ما جمعت الترعة في أحشائها من رواسب وبهائم نافقة.

يبدو أن المصائب لا تأتي فرادي لهذه العائلة.. سرعان ما تتحول أفراحهم

إلي كوابيس مفزعة، كأن أحد يتربص بهم أينما ذهبوا.. فالأيام تجري كأنها في سباق مع بعضها البعض، حتي أن سلمي بدت تري اليوم عند المغيب يحدثها ويتوسل إليها.. كل يوم تقف عند الشرفة لتشاهد قرص الشمس وهو يتحول إلي الحمرة كأن المغيب يغتاله وتبدأ في ترديد جملة حيرت كل من يسمعها.. أرجوكم لا تتركوني أموت وحيده، فإنها المرة الأولى التي أموت فيها وحدي وقبل أن أموت، لن أغفر لكم، بابتسامتي سأنتقم منكم جميعا، أجل سأنتقم... وسأحيا.

حاولت أختها الصغري نوال أن تتحدث معها مثلما كان في الماضي أملا في أن تحرك ذلك الحجر الصامت الذي لا ينطق إلا قليلا، فبدأت تذكرها بما صار معهما من قبل من مواقف.. وفجأة صمتت نوال قليلا وقد تغيرت ملامحها شيئا ما بعد أن تذكرت صديقتها مشيرة التي أحبت سلمي وجعلتها المقربة لها وتناست نوال تماما.

نعم شعرت بالغيرة وقتها، لأنني أحب مشيرة فهي صديقتي المقربة، لكن لا يعني أنني كرهت أختي «لحمي ودمي»...لا تنظري لي هكذا فأنا لا أكذب هتسأليني ضربتها ليه لما شوفتها دايما معاكي وطردتها من بيتنا لأنها بتجيلك أنتي.. هقولك عشان حسيت انها أنانية وبتجري ورا مصلحتها وبس، يعني ممكن تبيعك في أي وقت تلاقي فيه الأفضل منك.. ورغم كدا كنتي حريصة جدا علي إرضائها، حتي في لحظة الاحتفال بعيد ميلادك معرفتيش تحتفلي بيه غير في وجودها... أنا عارفة انك طيبة.. أيوة طيبة متبصيش.

انتهت نوال من حديثها الفردي مع كائن لن ينطق وقد جففت بضع حبات من الدموع، ثم اتجهت إلي الشرفة تقتسمها مع أختها، وبعد تنهيدة طويلة وسكوت لم يدم كثيرا، نظرت إلي سلمي لتحكي لها كم أحبت طارق وانتهي بهما الحال إلي الفراق أيضا مثلما حدث معها فإن الحياة وقتها لم تتوقف.

هل يمكن أن يعاند الحبيب لمجرد أن سمع شائعات عن حبيبته التي تنفس أنفاسها وأكل من بين ثغرها وارتوي بلعابها وارتمي بين نهديها لحمايته من سقيع المشاعر هربا إلي حضنها الدافئ.. مهما كانت دموعي حارة لن تخفف

الألم في صدري ونار الفراق التي تغتالني حزنا علي طارق.
أن تجد نفسك بلا حياة ولا يدركك الموت، حتي تصبح معلقا علي آخر خيوط الأنفاس المحيطة بك، مهما كانت خانقة فلن تهتم بحثا عن الخلاص، فالنتيجة مهما كانت سيئة لن تكون بسوء حالتك.. ولكن لن أسمح لجراحي ان تزيد تقرحا ولن اتذلل حتي لأصابعي لتنجيني من عذاب جروحي.
نحن أسرة ملعونة.. مكتوب على أفرادها الفزع والوجيعة، لا استقام فيها رجل ولا انتشلت من لعنتها فتاة، شيرين ضاعت وضاع أطفالها، وأنا في الطريق إليها، وأنت لا أدر ما حل بك، وأبي بئس الأب هذا، وأمي مسلوبة الإرادة مطموسة الشخصية كهارب من ماض يخشى كشف ستره، ووليد ذلك المسكين المنهزم.
اتساءل عن حال وليد كثيرا.. كيف له أن يصل إلى قمة جبل فيلقي بنفسه؟!، يعيش حياته ميتا، جسد بلا روح، وقلب يدق ليحيا فقط بلا هدف لا شأن له بنا كغريب جمعته الظروف بهذه العائلة.. لم تكن شمس مجرد حبيبة تخلت عنه.
سيطر الحب على وليد وتمكن من تلابيب قلبه، منذ رؤيته لشمس أكثر من مرة بصحبة سلمى، عاش معها نحو ٩ أشهر، جنين يكبر، يتغذى على بضع لقيمات من الحب والهيام، كلما مر يوم ازداد فيه تمسكا بها، رسم معها المستقبل وكتب من أجلها الحاضر، فأجتهد إلى أن حصل على وظيفة محاسب في أحد البنوك الشهيرة.

ظهرت شمس غير متكترثة بالمادة وسريعا ما تغيرت شهيتها نحو المال، تطلب دون عذر، تنفق وكأن البنك ملكا لها، لم يستطع معها صبرا فضاق صدره ونخرت الكراهية أعماقه هي وبني جنسها، هجرها إلى غير رجعة وهجر نفسه معها، مختليا عن وظيفته وخطيبته وعاش وحيدا طريد الحب وذكريات الحبيبة.
تنهيدة طويلة ووجه يقترب كثيرا من المرآه وحبات من الدمع تتساقط علي

يدين تتكئين علي ظهر كرسي وضعته معكوسا لتمتطيه كالجواد تارة وتضع ركبتها اليمني عليه تارة أخري.. كلما ابتعدت عن المرآه تعود إليها وكأن الحديث لم ينتهي مع نفسها ولكن هذه المرة لم تر وجهها الذي اختفي ليظهر سريرها الصغير فتغزوها تلك المشاهد السيئة اللذيذة في شيطنة شعورها بنفس الوقت.

ما أجمل أن تجد الفتاة يدًا حنونة ترتمي بينها، تتحسس جسدها دون طمع أو شهوة.. أحيانا تفكر سلمى في هذه اللحظة.. في ذلك الرجل الذي يقتحم عالمها بلمسة وربما نظرة تطمئن لها.

الغريب أنها اتخذت من الأحلام عادة.. يوميا حلم جديد لكن الجنس فيها بمثابة حبل سري موصول بين جميعها.. رجل يكبرها في العمر لم تتضح ملامحه في كل مرة.

استمتعت بلمسته وهو يتحسسني، كلما وضع يديه علي جزء مني، برأ وعاد بلا سقم.. فقط أغمض عيني وأتمادى في المتعة الخيالية.. تمنيتها في يقظتي كثيرا.

قبل موعد نومي المعتاد مع إشراقه الصباح الأولي أتذكر حكاوي صديقاتي المتزوجات عن طقوس ما قبل النوم، إحداهما لا يستقيم جسدها علي السرير إلا بالاستحمام، وأخري تكتفي بغسل القدمين والأسنان، أما أنا فكنت دائما عروس تتجهز لحضن حبيبها، تهفو لأنفاس زوجها المنتظر في فراشهما لهفة لحبيبته.. أتجرد من ملابسي إلا قليلا فكنت لا أطيق مجرد الجلوس بملابس تسجن أنوثتي تحتها، وأضع عطري، لأنني أتذكر كلماته حينما أخبرني أن عطري حياة، فلا يتخيله علي جسد امرأة أخري وكأنه روح لا تسكن إلا جسد واحد.. هكذا قال "عطرك يميزك عن نساء المدينة".

كل ليلة قضيتها في عمق حضنه، حاولت أن أتلمس ملامحه لأبحث عنه كلما خرجت إلي الشارع لكن دائما وجهه مظلم ودقات قلبه متسارعة استمع إلي صوتها العالي.. قررت كثيرا أن افتح عيني ربما رأيته حتي انتبه إلي كونه حلما سيختفي بمجرد أن استيقظ، فالأشياء الجميلة لن أراها إلا في أحلامي كما أن

المتعة الحقيقية لن يجئ وقتها في مجتمع يري أن كل فتاة وصلت سن الثلاثين أصبحت عانسا ولم يبقي لها من الأنوثة ما يؤهلها لترتقي لإسعاد غرائز أحد الذكور، فإن كان به عيب يستعين علي قضاء حوائجه بصيدلية من الحبوب اختلفت ألوانها ومنها متشابهات، ليواري سوءة نفسه.. لماذا لا تكون تلك العانس قد نفدت بنفسها من أشباه الرجال، وما أكثرهم؟!

بحثت طويلا في أسماء الأصدقاء، فلم أجد صديقا رغم كثرتهم إلا أنهم كغثاء السيل أو زبد البحر، وجودهم كما العدم.. الغريب أنها أصبحت حكمة وربما مبدأ يتداوله الناس في الشارع وكأننا نبحث عن المخلصين دائما ولا نجدهم.. "مفيش صاحب يتصاحب "، علي زجاج السيارات والتوك توك، والحوائط وفي الميادين العامة والشوارع.

لا أعني أن كلهم خائنون أو عديمو المسئولية.. لكنني كرهت أن تكون أسراري مستباحة في كل حين لمجرد مضي وقت عليها ليفاجئني أحدهم بابتسامة يطفو عليها الغباء ليضحك من حولي وتتقطع أحشائي وهم كالأنعام لا يعقلون.. أبحث عن شخص يحتويني، يصدقني القول ولكن في أي عالم سأجده، وقد أصبح الكذب والتخوين ماركة مسجلة في التعاملات اليومية للناس.

كلما ضاقت بي الدنيا أهرب مسرعة إلي النوم بحثا عنه.. أصبح إحساسي غريب يحتوي كل صغيرة في جسدي، إلا أن والدي كاد يكشف أسراري بعد أن استيقظت ووجدته بجواري، لم أكن في كامل وعيي وأنا أفتح عيني قليلا وأطالبه بقبلة الحياة وحضن يخطفني إلي عالمه الخاص، لكن نظرة الدهشة جعلتني استقيم في كلامي وافتح كلتا عيناي له "ربنا يخليك ليا يا بابا".. هكذا انقذت نفسي.

في كل ليلة أنام علي موعد مع حبيبي ورقابة مشددة من والدي، ربما ارتاب في أمري.. يراقب أحلامي، عساني أبوح في غفلتي ما لم أنطق به في يقظتي.. افتقدت معني "في سابع نومة" فمهما كنت مرهقة او في حالة اشتياق لتلك اللمسة لن اصل إلي الرقم سبعة في عالم النوم، لإدراكي أن شخصا يعد أنفاسي وينتظر كلمة أنطقها سهوا.

كاد يقتلني بنظرته المتربصة حينما صحوت وهو إلي جواري، فلما تعجبت لكثرة وجوده بغرفتي.. يهرب إلي حجج كثيرة ويتلعثم كثيرا وهو يخبرني أن اهتم بغطائي فلم أعد صغيرة ليسقط عني أرضا.. ولم يبالي بكونه يعرف أنني تعودت أن ألتحف سقف الغرفة في الصيف أو الشتاء منذ كنت في الابتدائية ولا أطيق تلك الأغطية التي تبعث علي جسدي الحرارة.

في إحدي الليالي وجدتني في حضنه، كأنه ظمآن يرتوي من قبلاتي ووجهي بين قبضتيه يعتصر من قسوتهما.. وقتها بادرتني الظنون في والدي لولا أنني كنت مع حبيبي في بحر نومي استمتع بما يموج به تجاهي، فوجدت والدي بجواري. أعرف أن بعض الظن إثم.. فما بالك بكل الظن، فقد أجبرتني حالتي النفسية علي حرق المزيد من السجائر كأنني أنتحر في بطء بعد يوم غائم من الهموم، حتي وصلت إلي القيء من شدة ما أرهقت معدتي.. لم أتناول كوب العصير المعتاد قبل النوم وتخلصت منه في إحدي أواني النباتات بغرفتي تجنبا لأسئلة أنا في غني عن إجابتها.

من قال له عن تعبي؟ ما أجمل أن يحتويك أقرب الناس إليك! فلمسات والدي جعلتني في منتهي السعادة لافتقادي لها ولهذا الحنان الغائب منذ فترة بعيدة، ويبدو أن تلك اللحظات انتهت سريعا بعد أن تمادت يداه.. لا يمكن أن تكون لحظة حنان من أب لابنته، هذا عاشق نال من جسد معشوقته لا يترك مكانا إلا أمسك به.. نعم إنه والدي.

فتحت عيني في ذهول ولم يكن يراني لاندماجه في متعته حتي صرخت في وجهه فانتبه إلي نفسه واضعا يده علي فمي.

بتصرخي ليه؟

إيه اللي انت بتعمله ده؟

مش بعمل حاجة.. كنت بطمن عليكي !

إزاي يعني بتطمن عليا وتعمل كدا؟

بعمل إيه يا بنت.. انتي اتجننتي ولا إيه؟

مش عايزة أشوفك في أوضتي تاني أحسن هفضحك

إنتي مريضة فعلا وعايزة تتعالجي.. وأنا هعرف أظبطك كويس
متخافش أنا مش هقول لماما.. كفاية مشاكل وفضايح، هنعمل إيه لما الناس تعرف إن أب بيعمل كدا في بنته؟
أنتي أصلا مش بنتي.. آه مش بنتي.. اتخمدي.. يقول ذلك وعيناه علي الكوب الفارغ بجواري وكأنه يسأل نفسه كيف يذهب مفعول المنوم سريعا؟
عفوًا.. كلمة في منتهي القسوة والحماقة، ففي أصعب المواقف وقت أن يدهسك عديمو المشاعر أو الشعور وينالون منك بلا رحمة تجد أحدهم يقولها والمطلوب منك أن تبتسم بالعفو.. ربما صدمتك سيارة في عرض الشارع وتجد صاحبها يغامر بعيدا عن التكييف لتفاجئ برأسه من بين الزجاج طالبا منك العفو لأنه كاد يقتلك.. ما أحقر هذه الكلمة في تلك الظروف، وما أقساها عندما يطلبها شخص قضي عمره في ابتكار أساليب عذابك.

.....

دخلت الحمام في ليلة افقدتها قدرتها علي التركيز حتي أسرعت إلي ملء البانيو بماء دافئ لتختبئ تحت فقاعات الصابون التي تعتلي الماء.. عادة ما تستغرق نصف ساعة لتعود إلي بريقها النفسي ونضارة وجهها بابتسامة تواري الحزن في عينيها، لكن النفس العميق التي استحوذت عليه كأنه الاخير لها، ساعدها علي الانسجام مع الماء كأنها عروس بحر عادت لتوها إلي عالمها.
رغم ما تشعر به من أجسام غريبة تعيش معها في الشقة إلا أن سلمي هربت من خوفها وسط ظلام دامس في يمينها مصباح كهربائي يحتضر، طمعا أن يتزود بكهرباء تقوي بطاريته ليستقر نوره الذي يتراقص كلما تحركت أو تنفست كأنه يرتجف خوفا مما أصابها من هلع عندما رأت أشخاصا لم تتعرف عليهم إلا أن كل منهم بدأ يحدثها بما سيحدث لها وللمحيطين بها.
اختفي الشعاع الأخير من ضوء احتضر أخيرا فهرعت إلي شمعة أضاءتها بولاعة إلي جوارها كثيرا ما تستخدمها في إشعال سجائرها.. تحدثت إلي طفلة صغيرة تراقبها منذ لجأت إلي فوطتها تجفف ما علي جسدها من ماء كأنها تعدد القطرات المتساقطة علي الأرض وأنفاسها المضطربة.

" بيقولوا إن الزعلانين او المتخاصمين بيقفوا قدام ربنا يوم القيامة، وانا مش عايزة أشوفك يوم القيامة عشان كدا مسامحاك ".. لم يخفها أكثر من ابتسامة هذه الطفلة وهي تقول جملتها، فسألتها عن مرادها من كلماتها الغامضة وازدادت حيرتها أكثر وأكثر لأنها لم تجد ردا كما لم تعد الصغيرة موجودة.

في هذه الأثناء خرجت والدتها وارتكنت إلي الأريكة المواجهة للتليفزيون لتشاهد مسلسلا استحوذ علي فضولها منذ بدايته، فجلست إلي جوارها في صمت، حتي أن رأت رجلا يرتدي جلبابا أبيض يصول ويجول في الشقة ولم يكن هناك غيرهما، ومع إقناعها لنفسها أن ما تراه مجرد خرافات أو ربما يهيئ لها ذلك، انتبهت إلي صوت أمها.. انتي شايفة اللي أنا شايفاه؟

لحظات من الصمت مليئة بنظرات الخوف والالتفات هنا وهناك بعينيها المتسعتين بعد أن انتبهت إلي حقيقة ما تراه.. نفس الرجل رأته منذ شهر تقريبا علي سطح المنزل يجلس ناظرا إليها ولا يتحدث، لكنه كان سعيدا جدا فابتسامته لم تفارق وجهه حتي توجست منه خيفة وارتدت علي عقبيها بين غمضة عين وانتباهتها بجسد يتراقص مرتعدا من الخوف.

نظرت إلي والدتها وهي تلحق بالرجل إلي غرفتها لتتأكد من صدق ما رأت فلم تجدا أحدا..

ما مرت به العائلة الصغيرة يوم أمس جعل الأم تشد من أزر ابنتها، فلم ينم أي منهما منذ أن نشبت خلافات مع زوجة عمها التي تفننت في الكيد لهم، فرفض سلمي للزواج من أخيها أشعل بداخلها النار، حتي اعتبرت ذلك إهانة لها واستهتارا بأخيها لأنه لم يكمل تعليمه الجامعي وهي علي قدر من العلم والجمال.

كثيرا ما حقدت عليهم زوجة العم، وتتدخل في أدق تفاصيل حياتهم كأنها ذلك المراقب المكلف بعد أنفاسهم، لاسيما بعد سفر ربيع إلي الخارج ونجاحه في جمع أموالا وفيرة، رأتها لا تحق لهم.. فالمرأة عندما تتملكها الغيرة تسكنها الشياطين فتوسوس لنفسها أولا بتبرير ما تفعله من كوارث وما أعظمها إن جاءت من امرأة قيل عنها (إن كيدهن عظيم) مقارنة بالشيطان الذي كان

كيده ضعيفا.

قديما كان ربيع يغدق عليهم من النعم كلما عاد من الخارج لدرجة أن زوجة أخيه حاولت كثيرا إثنائه عن فكرة الزواج بدعوي التفرغ لعمله وأن أي امرأة لن تصبر علي فراقه كثيرا وسرعان ما ستفشل الزيجة، إلا أن والدته أصرت علي زواجه قبل السفر من فتاة علي قدر من الجمال.. ولبي رغبتها حتي أنه شكر لها صنيعها فقد أهدته عروسا تمناها أي رجل بعد قصة حب باءت بالفشل هرب منها إلي السفر والزهد في نفسه طويلا، محاولا نسيان قريب لها كان سببا في مأساته أو ربما أراد إشعال الغيرة في نفسه لزواجه من إحدي قريباته، رغم أنهما صديقين تحسبهما توءمين لا ينفصلان أبدا من كثرة ما يقضيانه سويا طوال اليوم ليل نهار.

ثلاثة أيام، قضتها سلمي بقليل من النوم وكثير من التفكير والقلق، تشعر وكأن أحدا معها في الغرفة، كلما لجأت إلي السرير شعرت بأنفاس حية تقاسمها الفراش، لم تر أحدا منذ ذلك الوقت فغلبها النعاس دون أن تخطفها خيوط النوم إلي شبكة الأحلام المغزولة بلحظات من الفزع، فقد عادت طفلتها الغامضة لتضع يديها الصغيرتين علي جبهتها.. فتحت نصف عينيها، لم تجد أحدا.. فما لبثت أن عادت إلي نومها المفقود حتي انتفضت.

انتي مين؟

تقصدي ايه باللي قولتيه قبل كدا؟.. جاوبيني؟

لهفة سلمي علي الإجابة جعلت الطفلة تضحك طويلا، كأنها تلعب مع إحدي صديقاتها في شوارع غفل فيها الأهل عن أطفالهم.. حيرة في مواجهة ضحكة.. ألم يري السعادة في عذاب يتذوقه، لكن عينا سلمي تبوح عن إصرار قوي لمعرفة من هي وماذا تريد، فأعادت رغبتها في المعرفة.

أرجوكي.. قوليلي انتي مين وعايزة مني إيه؟ أرجوكي

_ أحيانا نبحث بداخلنا عن أشخاص أفقدتنا الأيام وجودهم، فلا نجد سوي صحراء من المشاعر لا تغني ولا تسمن من جوع.. لا زلت أخافك فجميع الاحتمالات قائمة ربما تخفي شر الانتقام.. كل شيء متوقع... وابعد التوقعات

هو الأقرب للحقيقة، انت من علمتني ذلك..
علمتك !!
أنا عمري ما شوفتك.. كلامك غامض، كل كلمة عايزة تفسير تقصدي إيه بيها..
روحتي فين متمشيش.. روحتي فين؟.. يعني إيه هي اللي خايفة مني؟
وقفت في شرفتها تنظر إلي السماء ولم يكن فيها القمر لتخبره عن حالها فقضت ما تبقي من الليل شاردة الذهن، فلما رأت خيوط النهار الأولي قالت هذا ألم جديد ينتظرني في ليلك القادم.. تجردت من ملابسها كأنها تتخلص من هموم ليلتها ووقفت أمام المرآة تتغزل في جمالها.. في ثوان لم تعد تلك الفتاة التي يُعرف عنها التواضع رغم ما لديها من مميزات عن مثيلاتها في الحسن وجمال الشخصية.. تساءلت من ذا يستحق سلمي؟وتجيب:لم يعد يغريني بشر.
.. بعد جولات من الغيرة الأسرية بين زوجة العم وبين أسرة سلمي، تحولت الشقة إلي عربخانة بفعل ما يجدونه أمام الباب من ماء عفن والتراب المجلوب من المقبرة المنسية (المقبرة المهجورة التي لم تعد تستقبل موتى جدد)، ووصل الأمر إلي رش ذلك علي الملابس المعلقة علي الشرفة طمعا في أن تجففها الشمس.. لم ينتبه أي منهم إلي سوء ما وجدوا فاختاروا الصبر علي ما تفعل لعلها تجد من اليأس هدي لكن ذلك لم يمنعها عن مواصلة ما شرعت فيه وعقدت العزم عليه.
بعد أيام، فاض الكيل من طوال الصبر علي أفعال السيدة الغيور، فقرروا مطالبتها بكف أذاها عنهم دون جدوي فما نالهم إلا لعنة لسانها بأقبح الوصف والشتائم كأنها حيوان أصابته نوبة صرع، ينهش في جسد صاحبة قبل الغرباء.. الكلمات جفت علي لسان سلمي ووالدتها، دون دفاع عن نفسيهما، فأسرعتا إلي باب الشقة تحتميان من ويلات هذه السيدة سليطة اللسان والتي بدت من ملامح وجهها العبوس أن شيطان قصير القامة بدين الجسد، غليظ الأنف، قد لبسها بشعرها "المنكوش "، وقميص نومها الرمادي المقطوع.
أغلقتا الباب ولم تغلق هي فمها، فما زالت روائح كلماتها العفنة تفوح إلي مسامعهما.. لجأت سلمي إلي زجاجة الكيروسين"الجاز" تخففها بقليل من

الماء لتنظيف الشقة مما أصابها من سوء.. أسرعت الأم علي صراخ ابنتها التي تشتعل فيها النيران داخل المطبخ فلم تجد ما تطفئ به النيران سوي أن احتضنت ابنتها لتنقذ ما تبقي من جسدها لم تنل منه النار.

تحولت الفتاة الناعمة, بيضاء البشرة، ذات القوام الخيرزان, إلي قطعة لحم نالت منها النار.. دماء تتساقط هنا وهناك، وأم تصرخ بلا مجيب، وأخوة يبحثون عن منقذ لهم فلم يجدوا.. تناسوا الخلاف مع العم وزوجته فاستغاثوا بهم ولم يغيثوهما، إلا أن الأم حملت ابنتها وأسرعت بها إلي مستشفي يقبع علي بداية الشارع المجاور لهم..

لم تعد سلمي تلك الفتاة التي وقفت طويلا تتدلل أمام مرآتها، كما أنها فقدت الأمل في الزواج أو يعجب بها شخص ما، فرغم أن وجهها لم تمسسه النار ويكاد يضئ من فرط جماله إلا أن الحروق علي يديها وما تيسر منها علي نهديها، جعلها تتيقن ضياع نصيبها من أحضان الرجال وزينة الحياة الدنيا من البنين.

تذكرت نفسها وقت أن رأت طفلا يصول ويجول علي صدر أمه في أحد الكافيتريات التي اعتادت علي كراسيها ليل نهار تذيب فيها الوقت مع بضع علب سجائر وفناجين القهوة " المانو".. قلبها يهفو إليه، مجرد حضن أو قبلة صغيرة سيهديها إلي سواء نفسها، لترتوي من عطش الأمومة الذي يلاحقها كلما نظرت إلي المرآة.. لم تحقد علي فتاة تري يديها تحتضن حبيبها كما تفعل الآن، كم تمنت في قراره نفسها أن تكون هي من يتمسك بذلك الشاب وستفعل ما يحلو لها وله من جنون ومجون أمام الناس أو في خلوة يختاراها سويا بعيدا عن أعين المتربصين والحاقدين.

تحولت سلامة نفسها وتصالحها مع الناس إلي شيطان يكره الخير ويسعي دائما إلي الوسوسة بشروره للفرقة بين المرء وزوجه، فما أحقرها تلك الظروف التي جعلتها تغتال مشاعر أختها وصديقتها وكل من اقترب من محيط حقدها.. البعد عن الناس غنيمة لهم ونجاة من عذاب أليم يلحق بهم أينما كانوا طالما في استطاعتها الوصول إليهم.

هربت كثيرا إلي عالم بعيد عن المحيطين بها، بحثت عن أصدقاء جدد لا تعرفهم

ولا يعرفونها.. كانت أشد انطوائية، لم يعد لديها رغبة في العيش مع بشر كما لم تستطع هجرانهم طويلا، حتي استقرت علي المجتمع الافتراضي علي مواقع التواصل الاجتماعي بشكل مختلف ولغة لم تكن ترغبها، فما أن تحدثت إلي أحدهم إلا وأيقنت ميوله الجنسية، ظنا أن كل فتاة هي صلصال طيع يتشكل كيفما شاء لممارسة الرذيلة طالما قبلت صداقته الافتراضية أو حصل علي رقمها الخاص ليهاتفها ليلا بضع ساعات حتي مطلع الفجر وقد تطول إلي شروق الشمس..

على الفيس بوك.. كم من عاهرات يتشدقن بالفضيلة علي صفحاتهن وكذلك أشباه الرجال وهم يبشرون بالرجولة ويدعون المواقف البطولية والبطولة منهم براء فالإنسان ابن تاريخه، هو الذي يصنعه بنفسه وبه يكون الحكم عليه.

- وحشتيني

- إزاي يعني ودي أول مرة نتكلم فيها علي التليفون

- الوقت من الفيس للتليفون كان كتير أوي عليا، كل ثانية كانت ساعة

- بس أنا كدا ممكن أندم إنك بتكلمني لأني مسمحش بالطريقة دي

- بعتذر عن كلامي لو ضايقك

- لا أبدا، صمت طويل تفكر فيه عن طريقتها في التعامل معه وقد أخبرها "فيسبوكيا " بزواجه وأن له من الأبناء ثلاثة، فأي رغبة جعلته يبحث عن أخري وأي منطق يجعلها تقبل به صديقا رغم يقينها أنه يبحث عن علاقة جنسية فقط.

- قطع تفكيرها.. طبعا بتفكري أنا عايز منك إيه

- جميلة صراحتك وفهمك لي بهذه السرعة، قلما تصادفت مع من يخترقني

- أنا أعرفك أكتر من نفسك وده اللي شجعني علي الصراحة معاكي.. فمن نظرة عيناكي أري ما لا يراه غيري.. تحتاجين إلي الاحتواء والدفء في المشاعر، لا تبحثين عن علاقات عابرة بقدر ما تحتاجين إلي رجل يغزوكي بسلاح القلب ممزوجا بالعقل، يكن لكي رجلا وطفلا في آن واحد.

ارتعدت فرائسها خوفا من كلماته وأغلقت في وجهة الهاتف متسائلة من أي كوكب جاء إليها، لا يمكن أن يكون بشرا إنه ساحر من عالم آخر حتي يعرفني دون لقاء وهل تفضح العيون صاحبها هكذا، لن أجيب عليك، زد ما شئت من المحاولات لنتحدث لكني لست هذه الفتاة الضعيفة لم أعد كذلك فمن يعرفني يحترق لا محالة.

يومان فقط تقرأ فيهما رسائل عاشق وطبيب وونيس يعرف في نفوس الناس ما غفلوا عنه، يجذبها فيه إلحاحه وسيطرته علي فكرها بما وصل إليه من رقم قياسي في المحاولة، ٢٥ رسالة علي الهاتف ومثلها علي الفيس بوك، فأين أذهب منك أيها المغامر الجريء؟

انصاعت إلي صوت قلبها وما يوسوس لها من مجرد التجربة فتحدثت معه، وكادت تطلب منه اللقاء بعد أن سمعت تنهيدة له، تخرج فقط من صدر عاشق، استسلمت إلي شعر يسوقها إلي مسامعها.

أصغي إلي فإن وقتي ضيق.. والقمح ينبت مرة في السنة
خليكي عاقلة ولا تستقبلي.. مطر الربيع بوجهك المتجهم
كوني كما كل النساء.. فإنني لا اعرف امرأة تعيش بلا فم
إن كنت ترتاحين في شتمي فاشتميني.. فالحب بالإكراه ليس من هواياتي
والعنف سيدتي يزيد من تأزمي.. سأكون نذلاً... لو جررتك إلى الهوى جر النعاج
فحاولي يا سيدتي الحنونة أن تفهمي.

وقبل أن تمتدح فيه إحساس الشاعر وحسن اختيار كلماته، فوجئت بضحكة مدوية، تعجبت لها فسألته لماذا يضحك.. قال: كنتي ستمدحينني فيما سمعتيه، هكذا أخبرني قلبك المضطربة دقاته حتي تمنيت أن أكون نزار قباني لأكتب فيك مثلها وأكثر.

- سأخبرك سرا.. أغبى امرأة تستطيع أن تخدع أذكى رجل، ودائما لا ينسى الرجل أول امرأة أحبها وهي لا تنسى أول رجل خانها، فلا تحاولي أن تكوني غيرك ولا تقبلي بأن تكوني مجرد تجربة في سلسلة حياة أي رجل حتي لو كان أنا.

- أفهم ماذا تعني.. قرأته من قبل في روايات يؤلفها شخص ما دون أن يكون مؤمنا بها لدرجة تجعله فارسا لأحلام الكثيرات، سرعان ما يكتشفن خداعهن باسم الحب الذي لم يعد موجودا هنا علي الأرض.. فقد سمعت كثيرا من أسطوانات كسرها الكذب رغم عذوبة ما تحتويه من معاني الفضيلة وأمنيات حلمت الانثي بتحقيقها يوما ما في حضن أحببته لأستزيد من كلامه المعسول وأصبح بين يديه امرأة ينال من متعتها ما يشاء وطفلة يدللها ويلبي رغباتها كيفما شاءت، لمجرد أن طلبت بصوت هادئ خافت لا يكاد يسمعه رغم التصاق رأسيهما.

سأزيدك من أمري خبرا لعلي أجد من الحديث هدي.. فأنا هذه الفتاة التي لعنت يوم مجيئها إلي الدنيا - رفعت يديها إلي السماء تشكو- (أبي وكل أب في النار.. من أنجب البؤساء أمثالي) وألعن كثيرا لحظة رغبتهما في إنجابي، لأخرج إلي عالمهما المليء بالأنانية وامتلاك الشهوات دون الاهتمام بمتطلبات غيرهم (فلا عاش من كان لنفسه)، فكثرة الخلافات يا صديقي لا تبني بيتا ولا تربي طفلا فهي كالحرب الباردة تقتلنا في صمت.

قطعت كلامها، بعد صمت دام بضعة ثوان.. لم أعرف اسمك؟

في هدوء تام أخبرها: أدم..

تنهيدة طويلة أخرجت فيها بعض ما استقر في جوفها من حرارة ألم يعتصرها، لتعود إليه بفيض من الحزن، قالت:تمنيت الزواج كثيرا من رجل أحببته لكن أقرب الناس لي قد باعني لهواجسه ففرق بيننا، فكرهته والرجال أجمعين.

لكنك تتحدثين الآن مع أحد هؤلاء؟

أنت رجل افتراضي، لايمكن أن ألتقيك يوما، فهذا قرار اتخذته وقت أن أجبت علي طلب صداقتك، ولا أنكر كم فوجئت بقدر فراستك وفهمك لي من كلماتي التي تحولت إلي غرفة إنعاش تساعدني علي التنفس، وما زالت تبقيني بعيدة عن أنياب المرض في حرية غير مشروطة علي صفحتي هنا...فالحزن بداخلي انتشر في كل خلايا جسدي، لأشعر كأنني بيئة متنقلة لنشر فيروسات الأسي علي من يصادفني.

أنا شخصية سوداوية، فعلت ما لايمكن تخيله في كل من يقترب مني، لو عرفتها لن تجدني مرة أخري، إن قبلت فلك أن تلتزم بقوانيني وتنسي أنك عرفتني.
وماذا يخيفك من معرفتي؟، فأنا كما ذكرتي مجرد صديق علي الأنترنت لن نلتقي إلا برغبتك، فأنا أيضا لدي الكثير من الحكايات تمنيت لو صادفت شخصا أفضفض معه واخرج من بين ضلوعي أحداثا مريرة.
هذا فراق بيني وبينك، لكني سأخبرك مالم تستطع عليه صبرا.. أما عن عائلتي فقد دمرتها تماما وعملت علي الوقيعة بين والديَّ فتحولت حياتهما إلي جحيم نذوق نحن مرارته، حتي أن أبي قد أنكر نسبي برفع دعوي قضائية لم يعلم بها سواي، ويعاملني مثلما كان يشتهي في فتاة أحبها قديما ولم يحصل عليها، وهكذا صديقتي المقربة التي ساعدتها علي خيانة زوجها، فأوشيت بها عنده.
سأزيدك من الشعر القبيح بيتا.. رأيت رجلا يذبح زوجته ولم أمنعه، وكنت علي ذلك قادرة، لأفسد زواج إحدى قريباتي في قريتنا البعيدة داخل الريف وأوعزت إلي الصبية أن يلعبوا بالنار بجوار الهشيم فأنتهي بهم الحال إلي إشعال حريق هائل أفسد عليهم فرحتهم.
.. ولما كل ذلك؟
ألم أقل لك إنك لم تستطع معي صبرا؟.. لم أعرف الحب يوما، حتي خطفني كسحر اتقنه كاهن مغربي عجوز، لأفيق علي صفعة أفقدتني إدراكي لكل شئ بعد ضياع أحلامي علي يد والدي، فكيف أكون حملا وديعا وقد تربيت علي لبن ملوث بالشر من ثدي أنثي أسد شرسة.. سأغلق عليَّ بابي وارتمي في حضن وسادتي علي فراشي شديد البرودة لأقضي ليلتي مفتوحة العينين كما لو كنت سمكة صغيرة وسط سرب متوحش ينتظر لحظة غيابها عن الوعي لتختفي بين أحشائها..
كثيرا أري أشخاصا يتجولون في غرفتي ربما كانوا من عالم آخر يبحثون عني بعد أن وعدتهم بالرحيل أكثر من مرة في محاولات فاشلة للانتحار.. اعتذر منك يا صديقي فهم الآن ينتظرونني وأنت لم يعد لك مكان هنا.

الفصل الثالث

بعد دقائق من الغناء في المرحاض لشعورها بنشوة الانتصار علي نفسها هذه المرة وقدرتها علي السيطرة حتي وإن كانت غير ملموسة، فيكفيها أنها تشبعت بهذا الاحساس وأنها مرغوبة رغم مساوئ تسوقها عمدا لكل شاب، ظهرت طفلتها الشبح، فارتعدت بشدة، لأن الباب محكم الغلق، بدت كما ولدتها أمها لا كساء عليها والماء المتساقط علي جسدها لم يحمها من حبات عرق تتسابق علي الخروج من مسامها كأنها جنين يصرخ لتوه لنجاته من ظلمات سبع في رحم أم نال منها الخمر وما تيسر من الدخان الأزرق، يبكي فقط لمجرد أن استشعر النور للمرة الأولي، فالعرق الكثيف افقدها تمتعها بالماء البارد..

وضعت يدها علي نهديها دون كلام، رغم ما ادعته من شجاعة سالفا، بشأنها، فوجه الطفلة لم يعد مبتسما كما عهدته، النظرات الحادة والتجهم الواضح علي ملامحها أصابها بالفزع.. كلمة واحدة ولم تعد موجودة، كلمة افقدتها توازنها تماما، كأنها غضبت لسعادتها.

سمير... من أين لها أن تعرفه؟ ولماذا هو؟.. تساؤلات كثيرة ستجعلني جسدا بلا رأس فأنا في طريقي إلي الانفجار.. ارتدت ملابسها علي عجل واتخذت من غرفتها برجا مشيدا لا يجرؤ أحد علي الاقتراب منه.

تناثرت الكتب من حولها في نوبة غضب لم تكن لتنتابها إن ذكرت اسما غير سمير، فما دار في عقلها جعل من نهاية لعبتها أمرا محتوما، ومازالت أهدافها الانتقامية ممتدة الخيوط نحو عمها، وسرعان ما عادت إلي هدؤها المصطنع تسافر بين صفحات أحد الكتب، تدقق في كلماته.

كان سمير في ذاك الوقت يقرأ في مؤلفاته عن الأمراض النفسية النادرة، مابين ثقته في علمه وبين محاولات للتأكد من سلامة ما استند إليه من مراجع لأساتذته في هذا المجال.. يعود بذاكرته للوراء قليلا يستجدي ذاكرته وما مر به من تجارب مع حالات مماثلة حتى استوقفته مايسة.

ذات مساء التقيتها وقد سيطر عليها الشحوب وأعارها الدهر عصارة همومه وشروده الذهني، وكأن نصال الدنيا قد تكسرت بين ضلوعها.. يعلو جبينها

الحزن الكئيب، وقد تمكن الانهيار من نفسها، جاءت إليّ بعد أن غارت أسنان البلايا والمصائب في جسدها الرطب واخترقته حتى لامست النخاع.. في بداياتها استسلمت للواقع النفسي، وتعاملت معه كقدر محتوم.. لكنها لم تستطع أن تمتص طعنات الوجع، بعد أن تملكها الوهن، وصار ينخر في العظم وخزاً وإيلاماً.

اتصلت بي والدتها وأخبرتني بأن ابنتها بحاجة إلى علاج، وليس من السهولة إقناعها بمقابلة اخصائي نفسي، فقد يؤدي الأمر إلى تفاقم حالتها.. ولدى استفساري عن الحالة التي تمر بها عرفت أنها تعاني من الرهاب الذي أتى بمضاعفات نفسية أخرى فاقمت من حالتها، وعلمت أنها تتصرف بما يدل على كرهها لوالديها ولكل من حولها، وبعد عودتها من العمل تأتي إلى المنزل مكرهة، بينما تغادر الصباح وهي مرتفعة المعنويات.

ترتمي في فراشها لدى عودتها دون أن تسلم على أي من والديها، لا تأكل معهما، اعتادت أن تتناول الطعام مع إخوتها الصغار أو منفردة.. هذا الأمر كان يزعج والديها ويقلقهما بشدة، أخذ الوالد يمارس عليها بعض الضغوط.. لكنها زادت نفوراً، بل صارت تصرح لأخواتها أنها لا تطيق رؤية والدها.. أما والدتها فهي تكلمها وقت الحاجة فقط.. فلا مؤانسة.. ولا صراحة، ولا علاقة خاصة.. استطاعت الأم أن تقنعها بمصاحبتها عندما حضرت إلى عيادتي.. باعتبار أن أمها التي ترغب في مقابلتي.. لكنني عند رؤية «مايسة» بصحبة أمها.. تظاهرت بأنني أعجبت بها ورغبت في التعرف إليها.. وبالفعل فهي فتاة جميلة، هادئة فارعة، عيناها تحكيان الكثير، توحي لمن يراها بأنها عاقلة وواعية وذكية.

عبرت لها عن إعجابي بشخصيتها وجمالها وذكائها، واستطعت أن أكسب ثقتها ووجدت لديها رغبة في التحدث إلي والتعرف بي أكثر.. فتحت معها خطاً مباشراً، وصرت أتسلل من خلاله إلى أدق خصوصياتها.. ولم أتردد في أن أقول لها «يبدو أنك تعيشين مشكلة ما، وأنا مستعد أن أعينك على حلها.. وبهدوء دون أن يعلم بذلك أحد.. بعدها فتحت لي قلبها وأخذت تروي جانباً

من معاناتها، فقالت: منذ طفولتي شعرت بأن تناقضاً ونفاقاً يمارس في بيتنا.. فوالدي يضربنا على أبسط الأشياء ويرتكب أكبرها.. والبنت في قاموس أهلي.. إنسان ناقص.. وربما أرفع درجة من الحيوان قليلاً.. كنت أُضرب لكي أنام، وأُضرب لكي أصحو من النوم ولأذهب إلى المدرسة، وإذا دخلت غرفة لأنام أُطرد منها، وإذا دخلت غرفة أحد اخواني يذودوني عنها، أخواتي الكبريات معقدات نفسياً.. أصبح وجود أبي في البيت يعني البعبع المخيف.. وغيابه يترك فسحة من الراحة النفسية لدينا جميعاً.

صرت أخاف من المستقبل، وأرى الزواج حكماً بالإعدام ينتظرني، أرى مقصلته كلما أغمضت عيني، وأسمع صليل سيفه كلما سمعت وقع خطوات أبي وهو يسير نحوي ليأمر وينهى، ويضرب ويبطش.. وقتها أتذكر.. كيف تزوجت أختاي الكبريان.. حيث عقدت الصفقة بليل، ولم تُعلما عن زوجيهما شيئاً إلا بعد الانتقال إلى عشي الزوجية (حظيرتي الزوجية) اللتين رأتا فيهما صنوف الأذى والعذاب.. وكلما اشتكت إحداهما من سوء المعاملة، ضربها والدي وأعادها إلى زوجها.. لهذا فأنا خائفة من المصير المجهول.. من القادم القاتم).. من خلال حديثها، عرفت أن مايسة غارقة في بحر من الأحزان، حتى أن والدتها تقول: عانت في طفولتها.. وواجهت قمعاً شديداً من أهلها أفرز عندها خوفاً وكرهاً.. وأصبحت نفسيتها مرتبكة.. وثقتها في أهلها مهزوزة.. بل في كل الرجال.. وكثير ممن حولها.. مايسة تحتاج تغيير معاملة أهلها تغييراً شاملاً.. وتحتاج إلى وقفة أمها، ثم أبيها.. حتى تعود إلى طبيعتها..

صحيح يستطيع الطب النفسي أن يعيد لها بعضاً من ذاتها.. لكن وعدتني والدتها أن تضع يدها بيدي، لكي نقود مايسة سوياً إلى شواطئ السلامة والمعافاة.. وقد بدأنا المشوار بالفعل بعد أن حصلنا على ثقتها واستعدادها النفسي، وقطعنا شوطاً بعيداً.. ساعدنا على السير فيه التحول في معاملة أبيها لها، وهي الآن تقترب من العودة إلى الحالة السوية.

ساعات امتدت للخمسة، حتي انتفض سريعا إلي غرفته وأمسك ببدلة رمادية وقبل أن يهم بالخروج من المنزل عاد علي عقبيه محملا بأفكار عديدة أثقلت

قدميه فاختار الانتظار لمزيد من البحث وما يمكن حدوثه وقت تفجير إحدي مفاجآته في وجه ربيع وزوجته، فهو لم ينسي لقائهما الأخير وما استعرت من نار بداخله وقتها ففي أي خلاف بين اثنين، تجد الحاقدين كثر، يظهر منهم من يظهر، ويستتر منهم من استتر، فقد حاول ربيع أن يكسرني لمجرد أن يستشعر لذة الانتصار من بئر مآساتي، فليس من المقبول، السقوط في درك الانحطاط وبناء الأحلام المنهزمة على انقاض الاخرين، واستمداد القوة من فشلهم.

ارتمي علي الأرض يحتضن أوراقه من كثرة الاجهاد، كأنه استسلم لحالة اليأس التي نالت منه بعد أن قرر مواجهة صديقه القديم وقريبته بفشله في معالجة ابنتهم أو تشخيص حالتها بشكل صحيح.. أحيانا يصبح الاحتفاظ بالحقيقة هو السبيل الوحيد لحفظ ما تبقي من كرامة لدي الانسان ولكن إن ارتبطت بمصائر الناس فيكون كتمانها، نار تلتهم ما تبقي من أدمية بداخلنا ولكن أين المفر؟

يستفزونك لتخرج أسوأ ما عندك، فيقولون هذا أنت، اعتدت منذ زمن قسوة خواطرى.. حادة متحجرة لا مشاعر فيها.. أستطيع القول أنى لم أعد أشعر بذنب تجاه أي رد فعل أعكف عليه.. تجمد قلبي.. تبلدت أحاسيسي.. لم يعد هناك شيء يسعدنى.. باتت الأحداث عندى سيان.. حسناتى كسيئاتى.. حُلمي كحماقتى.. حتى عيناي نسيتا البكاء.. مالذي يحملنى على الاستغراب.. ودين البكاء على طيبتى ونقائي اللذان فقدتهما في لُجة الأيام والزحام لم أسدده حتى الآن.

همت به أفكاره فاستسلم سريعا، لم يخرج من منزله منذ أيام نسي أن يحصي عددها وربما تعمد ذلك، ابتعد عن عيادته، تلك الوسيلة التي يهرب بها من ماضيه تحولت إلي ثقل كبير يهرب منه الآن، ابتعد عن مرضاه رغم احتياجهم الشديد له.. استشعر في نفسه أنه غير أمين عليهم.. فكر مليا في تركهم لمعالج أخر، ينجون علي يديه من هلاوس المرض وغياهب الفكر المظلم في عقولهم الضالة..

لهذه الدرجة افقدتني ثقتي في نفسي؟ سلمي الحبيبة كانت درعا واقيا من

كل عثرة تواجهني، يد قوية تربط علي كتفي وقت الهزيمة فأعود قويا كما لم يصيبني ضر من قبل، لا أنكر أنني تغلبت علي صدمة فراقها، واكتفي بذكرياتي لأبقي علي قيد الحياة متحملا نار الوحدة بدونها، أما أنتي فمن تكوني سوي شيطان من الأنس كان كيدك عظيما.. نظرات عيناها أخبرتني العديد من بقايا المكر في أنثى ترفض عالمنا، لم أنتبه جيدا لتلك الإشارات.. سلبتني سلام نفسي وكأنني سكير يعربد بين العقول وما يدري عن غفلة عقلة.. تساؤلات جمة تتساقط كزخات المطر فوق رأسي تثير غيظي وحقدي، لم أجد لها إجابة تشفي صراعاتي حتي جعلتني أدم جديد وطأ الأرض مجبرا، تاركا كل نعيم حتي قال ما ذقت نعيما قط.

نظرتها الغامضة تلك الليلة، أثارت جنوني، تداخلت مشاعري، اشفقت عليها وكأنني أري حبيبتي حينما ازدادت علينا الضغوط إما الزواج أو الانفصال لتنال من حظها رجلا آخر، وما لي من حيلة وقتها علي النفقات المغالي فيها للزواج، فكانت كالجبل الراسخ في أعماق الحب لا يقبل الانكسار، وقفت في وجه أسرتها لتنجو بي وحبها معا، فهي لم تكن تقبل أن يستقر بها الحال، سلعة تباع أو تشتري كما يحدث حاليا في مختلف البيوت التي تطفو في أركانها المادة قبل الحب، وسريعا ما تهدئ فقاعات الإغراء لتنكسر حوائط المنزل ويفارق كل ذي مال زوجته باحثا عن أخري.

كانت حبيبتي قوية الفكر، رقيقة المشاعر، سريعة البكاء، ملائكية الشكل، عنيدة أحيانا، وبين يديَّ طفلة لا تجيد سوي الطاعة، فراشة تتزين بألوان طبيعية من الحب تتخذ من نظراتي بريقا خاصا ومن لمستي بساطا سحريا تمتطي به سطح القمر.. هكذا أخبرتني..

أما أنت فقد هزمتيني بجيوش المكر، لم أري وقعها في نظرات التشفي، كأنك تذكريني بربيع جديد، لعب الثراء برأسه وظن في نفسه الظنون، جاء في خريف العمر بزوابعه المهلكة ليسقط عني آخر أوراق الإحساس.. فما يثير جنوني ليس كونك تتدعين المرض، فيكفيني أن أفسره بعديد من الكلمات، قد أراكِ فتاة تختبر حب والديها بعد فقدان الدفء في محيطها الأسري أو تلك

المنهزمة الباحثة عن عالم مظلم لا يسكنه إلا قوقعة ضلت مياهها العزبة لتجد نفسها في عالم من الوحل فقبلت عن رغبتها ألا تحاول الهروب.

لكن لماذا سمير؟ ذلك السجين الذي ترك نفسه إلي التخمة هربا من ملذات الحياة، فما ذنبي أن أرث الماضي وأزيد عليه من حاضرك القاسي، فأسقط وحيدا علي طريق الكراهية متقطعا الفؤاد.. لا اتخيل أن يفعلها ربيع بعد كل هذه السنوات ولا أصدق أن تكون ابنته أداة الانتقام.. فما للماضي هو له وحدة كفيل بأن يذيبه في ساعاته الطويلة، حزنا كان أو فرح.. أما الحاضر فلا يملكه سوانا.. لا يمكن لغرور المال في رحلة الشباب أن يكبر معنا.. للشيب وقار وتقدير.

بجوار السرير النحاسي القديم، تقبع ألبومات صور يحتفظ بها سمير داخل مكتبته القديمة، قليلا ما تفحصها، فالمرة الأخيرة علي زيارتها كانت منذ ٥ أعوام.. أمسك بصور حبيبته لعله يجد من سحرها حجابا يحفظ ما تبقي من صبر يحترق بداخله، فهو علي يقين تقريبا أنها لم تمت وإنما تاهت بين دهاليز الدنيا وسيأتي اليوم ليجمع الحب شملهما بعد فراق يكسوه الألم..

احتضن إحدي الصور كأنه تمنى أن تخرج منها لتنقذ ذلك الطفل الشريد بداخله، لم يعد له طاقة علي تحمل البرد في ليلة شتاء عاصفة وهو متجرد من ملابسه كيوم ولادته.. كثيرا استوقف نفسه يحكي لها عن ذلك الشعور المرير بالوحدة وفقدان الدفء، لكن مرآته المكسورة كانت مقطوعة اللسان مسلوبة الروح «مشروخة» الفؤاد، لم تجبه يوما.. وماذا انتظر من الجماد؟.. قالها وقد غلب عليه النعاس تاركا حبيبته مستلقية علي صدرة.. لا أحد غيرها.

.....

رنين الهاتف أعاد سلمي إلي دنيتها الحقيقية بعد سفر امتدَّ طويلا بين صفحات الكتب وعوالمها المختلفة.. اسم المتصل لم يكن يستهويها للرد.. قررت ألا تستبدل الذي هو خير بالذي هو أدني، فما أن عادت إلي رحلتها حتي جدد المتصل محاولاته مرات عديدة لترد مجبرة.

أسماء.. وحشتيني

صديقتي الحبيبة افتقدك، تذكرت جنوننا معا.. فالنوم يخاصمني وليس لديُ سواكي.

جنوننا؟؟.. ماذا تقصدين؟

الالتحاف بظلمة الليل في شوارع القاهرة، والاستمتاع بهدوء شوارعها، ألم يكن جنونًا.. ما نفكر فيه نفعله ولا نخشي التسكع وحيدتان.. سأشعر بحزن شديد إن كنتي لا تتذكرين لحظاتنا معا.

غريب أمرك.. كيف تغيبين كل هذه الفترة ثم تعودين في ثوب جنون يفوق ما تركتك عليه في الماضي؟

اشتاق إلي شاطئ الاسكندرية كثيرا.. ذلك الهواء الرطب ورائحة اليود الذي يخصب فينا المشاعر ويرمم جمودها.. ونتركها علي وجبة من الاسماك الطازجة، لتستقيم أجسامنا وتتحمل عناء التمتع سيرا علي كورنيش المعمورة.

إن كنتي جادة في رغبتك فلنغتنم الفرصة، فأنا أيضا لا أجد للنوم سبيلا..

علي محطة قطار رمسيس، كان الهدوء جميلا في ذلك الوقت من الليل، قلما تجدها نظيفة، لا تتكدس بالناس من مختلف الطوائف والألوان يهرولون نحو الرصيف لا سيما المتوجه إلي الصعيد.. الهواء العليل يداعب شعرها كأنه يأبي أن يري فتاة جميلة ولا يقترب منها حتي لو كان تحرشا بريئا، لكن الحقيبة المتكدسة بالكتب والروايات عقدت يدها اليمني عن إعادة شعرها إلي حيث كان مصفوفا سائحا علي وجنتيها ليس كما يبدو الآن غمامة تكثفت فوق عيناها.

الساعة تقترب من الرابعة والنصف والقطار لم يتحرك.. تركت صديقتها إلي هاتفها تتحدث مع بعض الأشخاص أو لكتاباتها علي فيس بوك معلنة توجهها إلي مدينة الثغر، فتحت الحقيبة وأمسكت بإحدي الروايات البوليسية لرغبتها في إثارة روح المغامرة في نفسها، فهي تلبي نداء المؤلف كثيرا، تعيش شخوص الرواية أي كانت، تتفق معها أو تختلف، تري أنها الأنثي دائما التي يقصدها حتي أنها لا تلبث تنتهي من قراءة بضع صفحات فتغمض عينيها، متخيلة كأس الخمر يلامس شفتيها شوقا إلي جوفها الملتهب للرحلة وعقلها الذي لا

يتوقف عن رسم طريق المتعة أمامها.
استوقفتها كلمات عطرة ساقتها السطور إليها رغم ما تحملة الأحداث من رعب، حتي شهقت لترتوي بها كأن حبيب لها يداعب أذنيها بها أو أنها نصيحة له:دعها تمارس طيشها معك وأمومتها وطفولتها، وأن تحبك وتكرهك وتشتاق لك وتغار عليك، لا تنظر إليها كمن ينظر إلى تحفة لا يجب أن تتغير أو تتبدل، انتهز سيطرة نزعات العشق في داخلها وألقي بجسدك علي يديها وسافرا معا إلي سحائب زرقاء تمطر شوقا إلي منتهي المتعة.
توقعت أن طول السفر من القاهرة للاسكندرية سيجبرها علي النوم متي وصلت إلي المعمورة.. صوت أم كلثوم.. وقهوة الصباح.. وكتاب تهفو إلي قراءته.. وضحكتها التي وصلت عنان السماء مع صديقتها.. مغريات كثيرة من حولها، جعلتها تفكر جديا في البقاء أمام البحر، عدد سنين، لا تهتم لغيرها طالما كانت مفتقده هذه المتعة منذ سنوات.
قالت لبحرها الكثير من الأسرار دون كلام، لكنها أجهرت هذه المرة: الرضا فى حد ذاته مصدر لراحة البال.. إنك ترضى بحاجة قليلة هتفرح بيها، ترضى بحالك حتى لو فى ناس كتير أحسن منك، هيخليك مستريح من جواك، إن يكون عندك إيمان ويقين إن ربنا هو اللى فى إيديه التدبير وإنه هو لوحده اللى شايف إيه الأصلح ليك حتى لو كانت الحاجة اللى إنت عايزها وربنا مكتبهاش أحسن من اللى إنت فيه.. تكون متأكد إن قلبك هيرتاح وهتاخد على قد ما صبرت.. إرضى هترتاح وهتفرح.
كلماتها لم تكن نصيحة لأحد سواها، فهي دائما حانقة علي كل الفتيات في عمرها، تحزن كثيرا عند رؤيتها ليدين يشبكهما الحب ويجمعهما أحضان الأمل في بناء مستقبلهما، الأطفال فقط يجعلونها مثلهم، تجري وتلعب.. أحيانا تقفز في الهواء بلا حسابات، حتي أنها رأت أحد الأطفال علي دراجة أسرعت نحوه تاركة البحر وما في جعبته من أسرار أخبرته بها، أمسكت بذلك الملاك الصغير، واقتنصت لنفسها عشرات من القبلات المسروقة عنوة مع صراخ لم يمكث طويلا حتي استسلم لها فكأنما يعلنها صراحة.. (هيت لكي).

نجا أخيرا بدراجته نحو والدته التي مازالت تضحك من عطشها لقبلة تمتص فيها شفتيه كأنه رجلا اشتاقت إليه، وعادت هي أدراجها إلي صديقتها، فلم يعد البحر يثيرها حاليا وقد أشبعت ما حفرته الأيام من أبار عميقة بداخلها بهذه القبلات البريئة.

أسماء، قاسية الطباع، رق قلبها لدموع سلمي، وضمتها إلي صدرها لتعرف ماذا أصابها، بينما تجفف دموعها بملابسها قالت لها إن متعة الانجاب هي الشئ الوحيد ذو قيمة، يهديه الزواج للبائسات مثلي، يكفيني حضن صغير ابتعدت عنه ملوثات دنيانا يساعدني علي تجفيف أحزاني ويمدني بالأمل في الحياة كلما خزلتني.

الشمس في طريقها للرحيل والناس علي الشاطئ أيضا.. أما هي ما زالت في حضن أسماء التي اختارت الصمت، كأنها تمنت لو تبكي أيضا فالحال لم يختلف كثيرا بعد إنفصالها عن زوجها منذ عامين لعدم الانجاب، ورغم موافقتها علي أن يتزوج من أخري إلا أنه قرر الابتعاد عنها تماما ليعيش حياته الجديدة متفاديا كيد النساء لبعضهن، فقررت أن تعيش حياتها كما يحلو لها دون أن تضعف للحب مرة أخري، فالرجال لا يعرفون التضحيات كالنساء إن أحبن أحدهم.

كلتاهما تبكي علي أطلال ماض لن يعود مجددا، فما تبقي منه ذكريات تنغص عليهما كل لحظات الهرب.. فما كان إلا أن دخلتا تحتميا منها بين جدران الشالية التي تملكه أسماء عن والدها.

قرابة منتصف الليل ارتدت كل منهما أجمل ما لديها، علي وعد من أسماء أن تكون ليلة لن تنساها سلمي طوال عمرها لأنها ستفعل ما لم تفعله من قبل إكراما لصديقتها.

رائحة العطر تكاد تميز وجودهما في الشارع من فرط ما وضعتا علي ملابسهما.. وصلتا إلي ناصية الشارع ولم تتكبدا عناء البحث عن وسيلة مواصلات، فالعروض تنهال عليهما من أصحاب السيارات الفارهة إلى أن وقفت سيارة أجرة (تاكسي).

استقرت بهما السيارة أمام ملهي ليلي يبعد دقائق عن سان ستيفانو.. كأس الويسكي يلتحم بالأخر، كمن يتسابق للفوز بالجائزة الكبري، لكنه النسيان هذه المرة، والقهقهة أحيانا تساعدهما علي طرد أحزانهما مع الزفير الملبد برائحة الكحول.. تراقصتا علي الطاولات كفراشتين خرجتا، لتوهما من بين أسوار حديدية قاسية نسي صاحبه أن يتركه موصدا.

عالم غريب يعج بغيرهم معدومي الاتزان الذين يبررون دائما أفعالهم بهدف نسيان منغصات الحياة من حولهم، وأقل من فيهم تنتظره سيارة، لو باعها كانت كفيلة ببناء مستقبل أسرة كاملة.

أمسكت بهاتفها ولسانها بالكاد يتحرك.. تبحث عن أحد الأرقام، لم يجب عليها فزادت من محاولاتها إلي أربعة حتي أجابها، لكنها لم تنتظر أن يسألها عن اسمها، فهي تعرف أن رقمها لم يعد من بين اهتمامات هاتفه وصوتها أيضا ضل طريق أذنه بين أصوات عديدة يسمعها يوميا منذ فراقهما.

محمود.!! فاكر لما كنت بتقول.. مكالمة حبيبتك لك قبل النوم تطهرك من أوجاع اليوم كله ووحينما تختتمها بكلمة حب تعطيك دافعا أن تصحو في اليوم التالي ولديك دافعا للعيش رافضا الموت علي أثر الهموم والأحزان.. عندما تفتقد حبيبك كثيرا وتفكر فيه ليوقظك من عميق نومك علي صوته.. ويخطفك إلي حضنه وقت أن تتراكم علي صدرك الهموم فما للحزن عليك من طاقة... دور حواليك هتلاقى حاجة تفرحك حتى لو الحاجة دى صغيرة أوى إتمسك بيها وماتسيبهاش.

قاطعها في صوت رخيم تلاعبت في أوتاره شطحات النوم.. لو سمحتي أنا راجل متجوز وعيب كده.. قالها ولم يلقي بالا لغير زوجته التي نظر إليها في قلق أن تستيقظ إلي جواره وتسمع مالم تحط به خُبرا.

تركت هدوء الشارع إلي صخب الملهي باحثة عن صديقتها بقليل ما تبقي لديها من قوة.. وجدتها مستسلمة ليد رجل غريب يعبث فيها، وكلمة الإغاثة الوحيدة لديها هي أه المتعه، كأنه يدوس علي أوجاع النشوة المكتومة داخلها.. ابعدته عنها بجهد أضاع ما احتفظت به من قوة تبقيها علي قدميها.

أجلسهما الإعياء علي طاولة مجاورة للذئب السكران، بعد أن رأينه ملقيا علي المنضدة يلهث من أنفاسة المتسارعة حتي أن صوت شهيقة وزفيرة كان يتسلل إلي سمعهما.

دقائق واستعادتا قدرتهما علي الرحيل، تراهما كشجرة أرادت السقوط فيمنعها جذع ترتكن إليه، الأيدي متشابكة.. والعيون نصف نائمة.. والأقدام كطفل يتعلم المشي، يترنح يمينا تارة ويسارا تارة أخري.

بضع حبات من الدمع الساخن تتساقط علي وجنتيها، كلما تذكرت كلمات حبيبها فيما سبق وموقفه منها الأن.. نظرت إلي صديقتها ناصحة إياها، ألا تفرط مطلقا فيمن يحبها مهما كانت الصعوبات شريطة أن يكون هذا الحب حقيقيا تدعمه المواقف وليس الكلمات.. كان محمود رغم كل اللى هو فيه قادر يقول بحبك.. ورغم كل الشكوك تجاهه كان بيقول بحبك.. رغم كل الدموع اللى بيشوفها لما كنت بفضفض عن أوجاعي، ولما بقارنه بغيره كان بيقول بحبك.. ورغم كل اللى هو فيه، شافني الحاجة الوحيدة اللى بتفرحه، كان بييجى يرمى همومه في حضني عشان بسمعه.. لكن يا صديقتي ما الجدوي من كل ذلك إلا حصيلة كبيرة من الكلمات الموجعة والذكريات الأليمة دون أفعال واقعية تترجم ذلك الشعور إلي فعل حقيقي.. يبدو أن كلمة الحب أصبحت مجرد مسخ علي ألسنة الناس، لا يدركون معانيها، حتي لو كانت حياة الأخرين تترتب عليها، لمجرد الرغبة في امتلاك قلب أنثي.

بينما وجدت أنها تتحدث مع نفسها بعد أن غيب النوم أسماء، أخذت تجفف ما تبقي من دموع تمسكت بجفنها، لتتأكد أن ما تراه حقيقة...ذلك الرجل التي رأته في شقتها يقف مراقبا لها، لكن ابتسامته كانت تثير بداخلها مخاوف شتي، وما أن همت إليه لتسأله عن نفسه، كان قد تبخر بين غيام السماء في ذلك التوقيت من الفجر، لكن الطفلة قد عادت إليها مع نفس الابتسامة، كأنها تتباهي بنفسها لتحقيق ما سبق أن أخبرتها به.

سلمي تقترب شيئا تلو الأخر إلي فتاتها الشبح وعيناها لا تكاد ترجف إطلاقا حتي لا تختفي من أمام ناظريها مثلما فعل العجوز.. حاولت أن تمسك بيدها

دون خوف، فرفضت، فتعجبت سلمي لرفضها.
من انتِ؟ حقيقة انتي أم خيال؟ لماذا تؤرقين يومي وتمنعين النوم ليلا عني..
بصوت لم يكن المعهود عنها من قبل، ففي نبرة رخيمة قوية تنتابها البهجة، أخبرتها أنها ستكون لها هذه الليلة، لن يفرق بينهما أحد..
تساؤلات عديدة لم تجرؤ سلمي علي طرحها بعد أن ضاعت رفيقتها مع رياح هبت لا تدري من اين؟لكنها اخذت تفكر في كلماتها الغريبة ومن كثرة الارهاق الذهني اختارت النوم.
ربما تيقنت أن النوم لم يكن اختيارا موفقا بعدما شاهدته من مذبحة في حق آدميتها، فهي كانت تعاشر رجلا في نومها علي غير إرادتها، موثقة الأيدي ومكممة الفم، حتي وجدته يستعين بآخرين، كأنهم قبيلة من الهنود الحمر يستمتعون بجسد المرأة قبيل الأكل من لحمها الشهي الأبيض.
ملابس غريبة وشعر كشجرة الزقوم يحيط برأس كل منهم، بشرتهم تباين لونها بين القمحي والأسود، نصف رجل أحيانا يتحول إلي حيوان.. يعشقون الكلاب، والنمور.. من هؤلاء حتي يجبرونني علي مضاجعتهم هكذا؟
ربما كانت أضغاث أحلام، فمن يبالي بمجرد حلم.. هكذا أخبرت نفسها، لكن تكرار ما حدث علي مدار أسبوع كامل وتغيرات طفيفة في جسدها تقودها إلي عالم المترهلين باللحم والشحوم، جعلها تفكر جديا في حاجتها إلي طبيب نفسي يعالج ما لديها من مشكلات، تؤدي بالضرورة إلي ما هي فيه، لكن بعد فشل العلاج النفسي أكثر من مرة وصعوبة تحديد ما يلم بها، تذكرت زوجة عمها وما كانت تصنعه من أفعال شيطانية لتنغص حياة اسرتها.
كثيرا ما سمعت عن أعمال السحر والربط وما كان أعظم من الأعمال السفلية، داخل إطار العائلة، لكنها لم تكن تفطن إلي ذلك كما لم تؤمن به من قبل حتي جاء يوم اشتعال النار فيها دون سبب غير أنها فوجئت بجسدها يحترق وما لحق ذلك من رؤية أشخاص يعيشون معهم في الغرف المغلقة وما تراه حاليا من حفلات الجنس الجماعية داخل حلم مغلق في رأسها فقط.
اختارت أن تلجأ إلي العلاج الروحاني، بعد أن لعنت التعليم الذي أفرز

نوعيات غير مسئولة أو علي مستوي يليق بمهنة الطبيب.. ساقتها أسماء إلي أحد الدجالين سمعت عنه من فتاة تعرفها وربما كانت هي من ذهب إليه ويعرفه دون رغبة منها بأن تفصح بذلك.. الرجل لم يحترف عالم الدجل علي طريقة الأفلام بالبخور والنار أو الألفاظ الغريبة ليوهمهما أنه قادر علي فعل المستحيل أو طلب أشياء غريبة كريشة من ديك مثلا، فهذه مسلمات في عالم السينما فقط، لم يعد يصدقها الناس ولكنها الطريقة المثلي للمخرجين للخروج بمشهد عن الشعوذة لامتاع المشاهد.

كان الشيخ موزون حليق اللحية طويل القامة، عريض البنيان، ما أن تنظر إليه لن تعطية أكثر من أربعين عاما من العمر رغم تخطية الخمسين سنة وبضع سنين، فهو لا يرتدي جلبابا مزخرفا برسومات أو كلمات، حتي أنها لم تقتنع به دجالا بعد أن رأته علي هذه الشاكلة وقد لاحظ ذلك كثيرا من نظراتها المليئة بالشك والتي هدأت حدتها بعد أن أخبرها أنها ستعود إلي المنزل وستغفو قليلا لتري من صنع لها سحرا أسودا وأيضا مكان الخبيئة.

عادت إلي المنزل وما زالت لم تقتنع كليا بموزون، فقد وصفته بالنصاب الفاشل لأنها لم تعتاد أن تري ذلك المنظر المودرن في دجال.. كلما نظرت إلي صديقتها ضحكت كأنها تريدها أن تفهم كم لا يعنيها ذلك الرجل إلي أن افترقت كل منهما إلي فراشها.

وقت أن خرجت مسرعة من الحلم وهي تصرخ وجدتها، فعلها نيوتن عندما اكتشف الجاذبية بسقوط ثمرة التفاح، هرولت إلي أمها تقص عليها ما رأت.. إنها زوجة عمي ذهبت إلي دجال ليصنع لي سحرا تعاقبني علي رفضي عريسها وانتقاما مننا.

نعم يا أمي إنها زوجة عمي.. وضعت السحر في فم رجل توفي في مقابر العائلة داخل قريتنا بالغربية، تحت شجرة عجوز علي يمين المدخل المؤدي إلي مقابر أسرتنا..

كيف أذهب إلي المقابر وانبش قبرا؟.. لن أفعلها مطلقا حتي لو استمر السحر للابد، ومع شكوك والدتها فيما قصت عليها، كان رد سلمي المقنع شافيا من أي

شكوك، فهي بالفعل لم تري مطلقا مدافن الأسرة، فقررتا الاحتكام إلي والدها لأنه يعرف المقابر جيدا، حتي أن رده المؤيد لما جاء في رؤيا سلمي، أفحم الأم وجعل جسدها ينتفض خوفا.

خلت إلي نفسها تفكر في كل ما يحدث من حولها، وما تخفيه زوجة العم، ربما كان بعلم عمها أيضا.. لن أنغص نوم أحد الأموات لأنبش عليه قبرة حتي أبحث عن ورقة أو الأحجية التي دفنها عديمو الايمان معه في مقبرته الأبدية..

أيام قليلة ولم يعد حلمها السئ يراودها، حتي استشعرت بهدوء نفسي غريب جدا، كما لم تعد طفلتها الشبح تعود إليها ولم تعرف من أين جاءت منذ البداية ومن هي في الاساس، فقد فكرت أن تكون هي نفسها في سن الصغر، جاءت تذكرها بما كانت تعيشه من هدوء ودفء وسط أحضان والديها وتلومها علي ما ألت إليه أحوال هذه الأسرة.

بعد محاولات عديدة اقتنع الوالد بمغادرة بيت العائلة في الجيزة ليبتعد عن كيد زوجة أخية ليس لكونها سيئة بحسب ما تسوقه زوجته وابنته ولكن ايمانا منه أن المشكلات زادت بالفعل عن حدها بين النساء لذلك وجب الفصل بينهن.

كانت السيارات تقف في عرض الشارع وعمها وزوجته يشاهدان ما يحدث والغيظ يعتصرهما، لم يكن أحدا يتوقع أنه سيطيع لها أمرا.. عينا ربيع تلمح أخيه وزوجته حتي أشار إلي أخيه أن يأتي إليه وقد لبي، رغبة في توبيخ أخيه الأكبر، لكنه تذكر كراماته عليه فاختار ألا يخسره لعلها لا تنقطع، يوما.

يقف سعيدا كاظما غيظه وبينما عيناه تضحكان وفمه أيضا، إلا أن الحقد والكراهية تغلي كزيت وضع علي النار ألف عاما حتي اشتعلت فيه شرر الغضب.. قال لأخيه أن يتمني له الخير في العباسية، فانقذه صوت زوجته من مساعدتهم علي حمل المتاع او إيجاد حجج واهية للخروج من موقف جفت فيه الكلمات.. عذرا يا ربيع فأنت تعرف زوجة أخيك إن تأخرت علي نداء لها يبدو أنها في حاجة إلي شئ مهم.

وضعت سلمى الكتاب من يديها بعد أن تذكرت الكثير من الأحداث المؤسفة

علي مدار سنواتها الماضية.. وضعت الكتاب ولم تعد متذكرة هل كل ما مضي صدق أم من وحي الخيال.. وضعت الكتاب وقد وضعت معه دموع مليئة بالدماء..

جعلت الغرفة مظلمة تماما وجلست علي طرف سريرها تبكي، لا ترغب في أن تعرف حقيقة ما حدث لها، لم تفكر في الخروج إلي والدتها لتتأكد، استسلمت سلمي لنفسها الضعيفة، لم تهرول إلي أبيها الذي يحتضنها وقت الفزع منذ كانت صغيرة، هل يمكن أن تصدق كل ما يجول في عقلها عن والدها وعمها وزوجته، كل العائلة تحبها، فماذا حدث؟.

كلها أفكار غريبة تجول وتصول في عقلها.. لكنها فتحت عينها علي لمسه رجل حنون توقع أن تتمسح به كقطة صغيرة في يد صاحبها إلا أن خوفها منه جعله يتسائل عن السبب؟

سلمي !!. أنا زوجك ربيع

انت أبي.. ولست زوجي

ماذا أصابك.. أنا زوجك وابن عمك

كاذب.. فأنا لم أتزوج يوما.. وانت أبي

يبدو أن حالتك تدهورت كثيرا عن ذي قبل.. ألم أقل لكي لا تقرأين الكتب بهذه الشراهة.. يا سلمي أخبرتك أن عقلك يختزن جميع الأفكار التي تحصلين عليها من الكتب ثم يخلطها بالأحداث الحقيقية التي تعيشينها ليكون شخصية غريبة عنك، لماذا لا تسمعين النصيحة حتي لو من أجل أطفالنا.

أطفال مَن؟.. أخبرتك أنك أبي وأمي التي تجاورنا في الغرفة الأخري هي زوجتك وأنني لم أتزوج كما لم أنجب يوما.

والدتك قد توفيت منذ عامين تقريبا ووالدك كان قد سبقها منذ ٤ أعوام، أرجوكي أن تعودي إلي عقلك فنحن في حاجة إليكي، فقد وصل المرض معكي المدي، أطفالنا يضيعون كما أن بيتنا يتهدم أمامنا دون حول ولا قوة..

بينما كانت سلمي في صراع مع عقلها وعينها التي تري أشياء لم تراها من ذي قبل، كان عمها يدفن المزيد من الأعمال السفلية، فكلما زاد منها كلما

كانت حالتها أسوأ، فالجن الذي يتكفل بها لديه من الاتقان ما يفوق البشر، يحاول أن يفقدها عقلها بتقمص شخصيات كل من حولها، ليجعل منها خيال لا يتحرك إلا بحركته ولا تأتمر إلا بأمرة..

قوة إرادتها كانت غير محدودة، فغالبا ما تسيطر علي نفسها وتخرج إلي الشارع، لكنها لم تري سوي ما يبتغيه الجان منها، هكذا استمر الحال نحو عام كامل.. وهي غائبة عن دنيتها بعقلها وفكرها، حاضرة بالجثمان فقط.

الفصل الرابع

رغم شكوك سمير نحوها وما فعلته فيه من قبل هي ووالدها إلا أن توسلات أمها أذابت الكراهية في صدره، ليس ذلك فقط، بل أنه حاول ألا يكون فاشلا بعد اليوم، فوافق علي علاجها.. ذلك الطبيب النفسي المرموق لا يثق كثيرا في الاعمال والسحر وكل هذه الأشياء،

بحث كثيرا في كتبها فوجد كتب كثيرة عن السحر وأخرى تماثلها عن الأمراض النفسية، رأها من قبل ولم تلفت انتباهه كهذه المرة.. بعض السطور عليها خطوط بالألوان الحمراء وأخري بالصفراء، وصفحات كاملة بالأسود.

حاول فك طلاسم كل ما وجد دون جدوي.. اجتهد في تفسير مرضها دون جدوي، فهي تجمع مالا يقل عن سبع صفات مجتمعه من أمراض نفسية نادرة، وكلها قرأت عنهم فمن أين تكون إصابتها بتلك الأمراض وهي تعرفها جيدا.. وأحيانا يصاب طبيب الأمراض النفسية بمرض عقلي فهو ليس معصوما من المرض فما بالك بفتاة مثلها.

بينما يبحث في مكتبتها وجد رواية غريبة لكاتب مشهور، يتحدث فيها عن مرض نادر يسمي البلومانيا.. بضع صفحات ولم يجد ما يشفي غليله حول ذلك المرض، لجأ إلي مواقع البحث علي الانترنت.. تعجب كثيرا من هذا المرض وما يخلفه في عقل الانسان علي اختلاف مسبباته التي هي في الاساس مشروعة.. هل يمكن أن تتحول الثقافة إلي مرض، هل الحب وإن كان لفكرة في كتاب أن يتحول إلي مرض؟

تساؤلات عديدة أغرقت سمير في بحر الشك، لم يجد منها منقذا سوي الاسراع إلي الخارج مغادرا غرفة سلمي التي تقبع الآن بين جدران إحدي الغرف الخاصة بالمصحة النفسية المملوكة لسمير.

قليلا ما يذهب إليها يوميا، يحدثها بضع دقائق لكنها لا تتكلم مطلقا، حتي ظهر كطبيب مجنون يتحدث مع نفسه.. هي كصخر جامد لا يتحرك مطلقا، جميع ملامح وجهها تتغير إلي الأسوأ، فلم تعد تلك الرشيقة الجميلة رغم احتراقها من قبل.

بدت بالفعل كمن يتخبط من المس.. لكنها أخيرا تجيب علي نداءاته بما لم يكن يتمني سماعه، حتي أنه استشعر سوء ما وصلت إليه من تدهور نفسي وربما عقلي، كيف لها أن تصف والدها بذلك الذئب الذي يفترس فلذة كبدة.. ربيع ليس سيئا لهذه الدرجة، اتوقع أن يفعل ما يحلو له إلا أن ينتهك شرف ابنته وشرفه أيضا.

بعد أن سمع منها عن أحلامها وما يحيط بها من رجال يوميا في أحلامها للتقرب من جسدها زلفي.. ابتعد عنها قليلا وقد بدأ يتحدث إلي نفسه محاولا أن يجد مبررا نفسيا لهذا الكلام الذي يراه من وحي خيالها لا سيما أنها فتاة تخطت سن الزواج ومرت بتجارب عاطفية كثيرة انتهت جميعها بالفشل مما أوقعها فريسة للهوس الجنسي.

أمسك بأحد الكتب حتي استقر عند صفحة تتحدث عن الهَوَس بالممارسة الجنسية.. وكأنه يؤمن علي ما جاء فيه.. نعم إنه لايرتبط وحسب، بالدوافع الجسدية والمادية، بل قد يكون مرتبطاً، في بعض حالاته، بالدافع النفسي الروحي، بحيث تتقوى فاعليته وأثره حتى يصبح هوساً.. لا يمكن للأسباب الجسدية أن تنتج الهوس الجنسي إلاّ بمقادير بسيطة يمكن السيطرة عليها ولو مؤقتاً.. أما عندما يتفاعل البعد النفسي فإن الهوس السابق يصبح كبير الأثر فعالاً إلى الحد الأقصى، من خلال التفكير الدائم، ويترك ذلك الهوس أثراً بسبب طغيان الخيال على الواقع في حالة كهذه، فبسبب تحول الهوس إلى موضوع نفسي كامل فإن التخيّل الجنسي يتفوق على شكله الواقعي ويصبح نوعاً من التزيين المفرط الذي يتعرض لتغيير في الوضعيات والأوقات.. يتعرض صاحب الهوس إلى انتكاسة أحياناً، فالهوس بالجنس لأسباب نفسية، أقوى بكثير من الهوس لأسباب جسدية.

الهوس الجنسي، حالة مرضية لا تصيب النساء فقط وإنما الرجال أيضا، ويطلق عليه عند النساء (Nymphomonia) وهي في الغالب امرأة غير سعيدة، وعند بعض الذكور (Satyriasis) وهو أيضا لا يشعر بالراحة والسعادة، وأظهرت الدراسات مؤخرا أن معظم هؤلاء النساء والرجال

يفتقدون إلى النضوج العاطفي، واكتمال عوامل الشخصية والقدرة على التواصل الإنساني والنفسي مع الطرف الآخر، وقد يرجع ذلك إلى بعض المتاعب في مرحلة الطفولة نتيجة اضطراب العلاقة بين الأب والأم، أو قد تحدث الحالة بسبب الاعتداءات الجنسية في مرحلة المراهقة، أو الشذوذ الجنسي أو تعلم الجنس في مرحلة مبكرة من الأفلام والصور الجنسية والمجلات الرخيصة، أو أن يكون في بعض الأحيان نفسيا مثل خوف المرأة الشديد من ابتعاد حبيبها عنها أو ارتباطه بأخرى.

ملامح وجهها الغريبة جعلته يلتصق بالحائط يداه لا تستقيمان في جسدة من الرعشة.. لسانه أصبح ثقيلا علي شفتيه.. لم تعد سلمي مسالمه، هكذا فكر، لا مفر اليوم من غضب أراه في عيناها..

هدأت أخيرا، بعد صرخات حبسها الخوف في جوف سمير ويداها تعتصر روحه حتي خر صريعا علي الأرض، عيناها عادت إلي بريقها بعد حمرة انتابتها عن غير إرادتها، لسانها المتلهف لطعم الدماء ارتد إليها بعد مذبحة لم تسقط فيها قطرة واحدة من دماء سمير التي تجمدت في عروقه خوفا..

صرخت بملء فمها تطلب الغوث دون مغيث.. تحرك جسد طبيبها يمينا تارة ويسارا أخري بلا فائدة، تسأل عن السبب ولا تعرف.. كاد الخوف يقتلها من رؤيتها لرجل غيبه الموت فهي لم تعتاد علي رؤية شخوص البصر وانحراف الأنف وارتخاء الفك السفلي، وبرودة الجسد والتفاف الساق.

تلتفت لصوت يحدثها إذ بها فتاتها الغامضة.. من يعرف سرك لا بد له من كتمانه وسمير كان خطرا.. يثير غيرتي من كثرة اهتمامه بكي.. كان يحبك وهذا ممنوع.

تساءلت وفي صوتها حزن تسلل من جوفها الملتهب، أتقتلين رجلا لأنه أحبني؟ من تكوني؟.. صوتها يرتفع كثيرا علي غير عادتها حتي جف حلقها وبدت غير قادرة علي النطق.

نظرت إليها الطفلة وعلي وجهها ابتسامة أثارت غضبها.. قالت: ستعرفين أنني فقط من يحبك، أخاف عليكي من كل المحيطين بكي فإنهم بشر لا يعرفون الرحمة، يشعرون من أجل المتعة وليس الحياة.. سأخبرك بما لم تحيطي به علما.

أبوك علي علاقة بزوجة عمك.. حقا أجبرته علي ذلك بفعل السحر لكنه يستمتع بخيانة أخيه حتي أنه يعرف أن ابنه يكبر في أحضان غيره ولا يحرك ساكنا، لكنه لا يعرف أن أخاه يدرك الحقيقة لكثرة عطايا والدك وخوفا علي ضياعها.. ألا يعد ذلك من فعل الغابة؟

ماذا تنتظرين من سيدة أغوت أبًا ليفترس ابنته؟

الأن أدركتِ من يحبك؟.. اختاري أن تكوني من بشر يكرهون أو من أرواح لا تتقيد بتلك المشاعر الجامدة.. أختاري أن تكوني نفسا يشبعها الهوي والأنانية أو تتحرري إلي عالم من بريق لا يختفي بدفء الحب والأمان لأنه لن تطولك يد بشرية تتلوثين بإحساسها الكاذب...

تسألين من أنا.. أنا هي.. الطفولة التي ماتت بداخلك قبل أن تولد ليفرح بها من حولك.. والشيخ الغريب هو الشيخوخة التي تربعت في قلبك تتغذى على الكراهية والانتقام.

الفصل الخامس

انتفضت سلمى أخيرا من نومها مبعثرة المشاعر، مشتتة الفكر، مثلما حال غرفتها الآن، أوراق متناثرة هنا وهناك، قصص وروايات تشكو كما لو كانت من لحم ودم لضياع هيبتها على أرض متسخة.. دموع تتمسك بأخر همسات نفسها المضطربة ترفض الخروج من بين قضبان عيونها الشاخصة.

لم تعد أخبار الصباح وحكاوى الناس على صفحات الجرائد تثيرها، كما لم تعد قهوتها ممتعة بعد اليوم.. تبقى لها قليل من الصبر وكثير من الفضول.. لكن هذه المرة سقطت دموعها مثلما سقطت هي.. فخبر مقتل الدكتور سمير تناولته جميع الصحف، عناوين غامضة وجريمة مثيرة.

من قتل سمير ولماذا؟.. تسأل نفسها وكأن الإجابة مؤكدة عندها.

وضعت "شمس" القلم على حزمة من ورق أبيض غير مسطر تستخدمها دوما في الكتابة وإفراغ ما لديها من خواطر ويوميات، بعد فشلها كثيرا في استخدام جهاز الكمبيوتر.. تلوم نفسها كثيرا غير مصدقة أن عشرات من الكتب والروايات قرأتها على مدار أعوام عديدة مضت لم تشفع لها لتخرج ما لديها من أفكار على الورق لتتمكن أخيرا من إنجاز أول رواية فكرت فيها وفي كل تفاصيلها.

انتفضت من جلستها على صوت جرس الباب فأسرعت وكأنها تنتظر وحيا سيخلصها من الحيرة ويجيبها عن تساؤلاتها.

تهلل وجهها.. وهي تستقبل سلمى، وثوان تجهمت ملامحها وكأنها تمهد لصديقتها ما ألمَّ بها من حيرة وقلق.. من قتل سمير؟.. قهقهة سلمى لم تسمن ولم تغني من جوع لديها، فما زادتها إلا قلقا وربما خوفا الأن.. توقفت بعد يقين سكن قلبها من جدية صديقتها مع دموع شمس التي تحرق وجنتيها.

ممكن تهدي شوية.. سمير ما زال حيا

رد فعل غير واضح تماما من شمس، هل من أثر الصدمة.. أم هو التوتر، احتمال يكون غموض صديقتها.. الحقيقة أن ملامحها لم تكن معبرة، إلا أنها لم تعد مستسلمة لتلك الحالة فانتزعت من جوفها كلمات متصلبة تأبى الخروج على لسان جاف وشفاة حفرتها عضات أسنانها.

إزاي.. ستصيبيني بالجنون فما تبقى لديَّ من عقل لم يعد يحتمل لعبة الألغاز هذه!!

الأمر بسيط يا صديقتي الكاتبة.. تركت لنفسي جزءا من الخيال يحقق ما فشلت فيه بالواقع.. على مر الأيام التي أقص فيها بعضا من مأساة حياتي لتكتبينها طمعا في روايتك الأولى، وجدت لنفسي عالما أخر، أعيش فيه كما يحلو لي وأذيق من آذاني ويلات تجرعتها ليل نهار حتى وإن كانت نسيجا من وهم أو خيال.

حركات وجه شمس تزداد غرابة وغموضا في آن، تنظر وكأن فيلما غامضا يسيطر على حواسها، تخشى سِنة من النوم أو رمشة من العين فتجرى الأحداث سريعا دون إدراكها.

.. ولكن أين الحقيقة يا سلمى.. ما جذبني إلى حكاياتك أنها واقعية.. وهدفي أن تكون نقطة انطلاقتي نحو عالم الأدب والثقافة.. كلما كانت البداية جيدة ومختلفة، كانت النتائج مرضية وتختصر الكثير من الجهد والعناء !!

غابت شمس قليلا وقد شردت عن صديقتها المخيفة تُحدث نفسها، جملة سمعتها ذات مرة لم تلقي لها بالاً مازالت رهن أذني، نعم يكذب السياسيون وقد يكذب رجال الدين، ولكن مومسا لن تكذب فمن برعت في الترويج لجسدها لتبيع الهوى لكل العطشى من السكارى لن تستغل ضعفهم يوما أو غياب عقولهم فهي تحصل على الثمن وإن كان مبالغا فيه وهو يحصل على متعته.

هل يأتي يوم تكونين فيه عدوتي يا سلمى؟ فأنت قد برعت جيدا في التلاعب بكل آيات الحب انتقاما وبكل الصداقات رغبة في مرح أو فرض الذات أحيانا، لا حبيب من بعد محمود سوى نفسك وإن خيروك بين أمك وأبوك، انتظار الوفاء يا صديقتي هو قمة الخيانة لنفسي وأنا لم أعد أطيق صبرا على الانتظار.

نظرت كلتا الصديقتين إلى بعضهما وفي وقت واحد ابتسمتا، الغريب أنهما تفكران في نفس الأمر.. فبادرت سلمى تسأل صديقتها، ما يمنع أن تكونين جزءا من شخصيات الرواية؟ شغلني كثيرا هذا السؤال فقصتك بها من الدراما

ما يكفي لرواية منفردة؟

في ارتباك حاولت أن تملك لجام الكلمة حتى لا تفصح عن سريرتها وما يختلجها من مخاوف.. أخشى أن أكتب فلا أجيد التوقف، قد تطغى عاطفتي على حروفي، ودموعي على أفكاري، فأنتقل من كاتبة إلى مجرد فتاة تسجل مذكرات حياتها.

الهدوء المصطنع لم يستمر طويلا.. فسلمى لم تقتنع، فأخذت تذكرها بما مضى وقد تعاهدتا على إلقاء صناديق الماضي في غياهب النسيان.

صوت شمس كلهيب يوم مشمس في صحراء هجرتها الأفاعي، ولكن إحدى الأفاعي تلتحف رقبتها وسمها يخترق عقلها فلا مناص منها إلا بالموت.. كفاااية أرجوكي

تردد جملتها بلا توقف.. كفاااية أرجوكي.. صراخها يرتفع ودموعها تتزايد، الغريب أنها سقطت في حضن سلمى وكأنها صغير تمكن من ثدي أمه في هدوء لا ينافسه إلا من على رؤسهم الطير.

دموع دافئة وذاكرة ملتهبة تجاهد ذكريات الماضي وتأبى أن تعيد ولادته بالكلام عنه وإن كان الكلام لصديقتها التي تعرفه جيدا وعاشت كل تفاصيله معها.

توقفت سلمى عن الكلام ولكن شمس لم تتوقف، فعقلها الآن يتذكر، يحدثها، يذكرها، يعيد عليها منغصاتها، يستدرجها مرة أخرى وكأن سلمى استعملته لتكتوي صديقتها مجددا بنار تختبئ تحت رماد النسيان أو ربما أدعت أنها تناسته تماما.

يُقال أن لكل منا حظ من اسمه، لكن شمس لم تأخذ من اسمها سوى الألم وكثير من الحروق النفسية وزخات من العرق على جبين سجد طويلا على الأرض ندما وطمعا وبكاءً، فوالدتها فارقت الحياة في الأربعين من عمرها ولم تكتمل أحلامها مع الشهرة والنجومية بعد، وأبوها ذلك الضعيف المرتجف دوما قد تخلى عنها بإيعاز من أخرى أغوته.

أقنعت نفسها بأن لا يد لها في ذلك، وأن والديها ليسا نموذجا فريدا فالعديد

من الأزواج ينفصلون ولديهم أبناء لعدم الوفاق أو لزوال الحب، لكن كلما تذكرت ما فعلته عادت لتلوم نفسها، فكيف لفتاة في العشرين من عمرها تترك لنفسها العنان تفعل ما لذ لها وطاب من متع الحياة دون رقيب بدعوى ارتباطها بالدراسة والتحصيل وإنها على مشارف التخرج.

استغلت انشغال والدتها ببعض المشاركات الثانوية في الأعمال الفنية ومواعيدها غير المنضبطة فهي لا تزال في عُرف الفن "كومبارس" لا تملك من أمرها نفعا ولا ضرا إلا أن تستسلم لأوامر الحضور والانصراف أو ذهبت فرصتها لأخرى تقدم قرابين السمع والطاعه وهي كثيرة.

بضعة أعوام مضت تفعل ما يحلو لها، لكن الرياح تأتي دوما بما لا تشتهي شمس، فأمها الآن كغيرها تعاني من أزمات اقتصادية ألمت بالوسط الفني في ذلك الوقت ولم تعد مطلوبة كسابق عهدها مع الفن، قعيدة المنزل من غير علة جسد، مشغولة الفكر تدعي الإنشغال من غير عمل، وشمس لم يعد في مقدورها الخروج، فالاحتكاك بين الأم وابنتها تزايد وكأنهما زوجة وضرتها.

السنوات مرت سريعا، وغلب التطبع الطبع عندي فبقدر أمنيتي لتلك اللحظة لم أعد الأبنه المستفيدة من أب وأم في منزل اعتدت عليه كفراغ متسع الأطراف أحلق فيه حرة طليقة بلا قيود، وتهفو نفسي إلى سيرتها الأولى، لم يكذب يوما من قال إن المرأة ستفعل ما تريد وإن كانت مقيدة في غرفة محكمة الغلق مظلمة الأرجاء.

دبت الأفكار في عقلي كأقدام جنود يتأهبون على أرض معركة مصيرية، سريعا ما اكتشفت والدتي خداع زوجها الذي أغوته إحدى الصغيرات من عمر ابنته فهي لم تلتقي سلمى من قبل وكان من اليسير علينا أن نحيك المكيدة ليقع الرجل وزوجته في شرك مترابط الخيوط بلا مناص.

هذه المرة لعبت المشاعر وما يسمى بالعشرة دورهما فبهت كيد الذين مكروا.. مسكينة تلك الزوجة التي تغفر الزلات والنزوات لتستمر الحياة وفي صدرها غصة من لظى، لا تمر الساعات إلا ونالت من عقلها كذئب ينهش فريسة على وشك النفوق، تبدو هادئة وطواحين عقلها تفتعل الضجيج بلا هوادة، الشك

صديقها الدائم في كل حركة أو نفس.
ارتباك عزة كان مطمعا للصغيرة والصديقة معا، حاولت جاهدة العودة إلى العمل هربا من أفكارها ورحمة بكامل، الهاتف لم يفارق يدها برهة وإن اختلت بنفسها كان جليسها المفضل، يتفارقان وقت أن تمكن النوم منها على غير رغبتها.
لن أنسى وجه عبوس سيطر على والدي صبيحة يوم الجمعة، فالرجل أمام الشكوك سكران غاب عقله، فكيف لا ومن تؤكد الشك لديه ابنته، فهل من المعقول أن ترمي فتاة أمها بالباطل بالطبع مستحيلا، الطلاق كان صاعقة عند عزة مجرد كلمة خلاص عند كامل..
قتلت أمي ودمرت أبي وأتخذت لنفسي الشيطان صديقا.. يخطئ من يظن أنهما لا قيمة لهما، فالحياة وصعابها فرضت عليهما الكد والتعب لإنقاذي وأخي من فقر لا طاقة لنا به، تيقنت الآن، الآن فقط أن كيدهم في نحورهم فمن يدفع الثمن أنا وليس غيري.. أعيش بذنب أبي أتجرع من كأس امتلأ بدم أمي طالما تنفست ومازلت على وجه الأرض أعبث.
أخي يعيش لنفسه يلبي ملذاتها متناسيا من كانت أمه الثانية وأشد من عضدي بسلمى - رب أخ لم تلده أمك - وإن كانت قرين سوء، فلم يعترف بصحبتي غيرها فهي من تقبلني على عيوبي وأقبلها على مساوئها، إن افترقنا أضيع فبدونها أنا مسلوبة الإرادة.
إنَّ الخداع أساس الكثير مِن العلاقات البشريَّة، مبدأ شيطاني لن أنساه يوما ولم أفقد إيماني به لدرجة أن وليد كان ضحيته وما زال يعاني من لعبتي معه فأنا من أمرته بالانتقام من إحدى صديقاتي، فأغواها بالحب، وأنا مدد لا ينضب من أسرارها.
تلميذي النجيب أحرز أهدافا باسم الحب فباتت صديقتي كعجين طيع بين يديه يُشكلها وفق مشيئتي أو مشيئة سلمى لا أدر.. ٩ أشهر ووليد في عصمتي يأتمر بأمري وينزف ماله لأجلي، كلما حاول نيل جائزته الكبرى بالزواج، وضعت سلوى أمامه، فهي ما زالت بكرا، متفوقة، مستقيمة، تحب الحياة ووليد أيضا.

في ليلة حددت موعدها، اخترق وليد غشائها وانتهك أدميتها وسلبها الحياة باسم الحب، وتركته يصارع الحياة وحدة، فلا استطاع مضيا معها ولا استطاع إشباع رغباتي وشطحاتي الإبليسية.

أتريدين الآن منهجًا سويًّا يرتفِع بحياتك عن سفاسف الأُمور، ويرتقي بك مراتبِ العيش السامي والحياة الكريمة؟ أم تُريدين طرقًا ملتويةً وأساليبَ معوجّة تتبعينها للظفر بهذا الحبيب الذي تبكِين فقدَه، وكأنَّه الهواء الذي لا غِنى لحيٍّ عنه؟! أو ماء يجري على الْيبس فيُنبِتُ الأزهار والثمار مِن كلّ شكل ولون؟.

مزقت سلمى ما كتبته شمس ونثرت بقاياه في الغرفة كمن يخفي أداة جريمته فبعض الأوراق حملتها الرياح إلى الخارج والباقي استقر على الأرض صريع الهزيمة، وكأنها تقرأ ما في عقل صديقتها من صراع، وتخشى بوحها بالأسوأ.

تمكنت زوجة العم أخيرا من الفكاك بنفسها وساعدها من أنقاض بشرية حطت عليها، متجهة نحو الشباك لتفتحه على مصراعية لعل بعض الهواء يتسلل في جوانب الشقة فيخفف عنهم وطأة الحر والألم معا.

سلمى تتقدم ببطئ نحو جثمان والدها ناظرة إلى وليد بعد أن طبع قبلته مغادرا في ترقب يُشار إليه بالبنان وكأنه يحصل على نظرة الرضا من الموجودين..

النهاردة يوم وفاتك يا والدي وعيد ميلادي سأودعك ببضع كلمات لعلها تسافر معك تؤرق مضجعك فإن كان الكفن لا جيوب له فلعل حواسك الآن تسمعني

هل ظننت يوما إنك ربيتني في حياتك، أجزم أن الإجابة لا، فقد امتلكت زمام رغبتي وأمنياتي، جردتني من حقوقي وطموحاتي، انتزعت ما بداخلي من اختيار أو قرار، استطعت أن تجعلني دُمية مسيرة لك ومشيئتك، كيف تلومني على عدم احترامك، ماذا تختلف مناداتك بأنت عن حضرتك هل تستوجب تلك الحروف معاقبتي وإهانتي؟

جعلت مني نسخة كرتونية، بشر بعقل حيوان أخشى الاختيار الخاطئ، والإجابة الخاطئة، والحب الخاطئ، والقرار الخاطئ، والكلام الخاطئ، والأكل بطريقة خاطئة، والنوم على جنبك لم ترضاه، والشرب في كوب تبغضه، فتمردت عليك

وجعلتك أضحوكة، ليس فقط، بل جعلت منك عروستي المدللة أعبث بك وبكل من له صلة بك.

أبدعت في أن تجعلني ممسوخة الشخصية فارغة الوجدان، فشحنت قلبي بكراهيتك، وأعملت عقلي في إيذائك.

لا أخفيك سرا.. حسدتني إحدى صديقاتي لأنك والدي لرؤيتها جانبك المشرق مع الناس فقد كنت جميلا أمامهم، ملاكا يسرق القلوب فتحصد الألقاب والمحبة بلا منازع، فلجمت لساني عن الشكوى، كانت الحقيقة بداخلي نار تحرقني، لكنها ستزداد اشتعالا لتأكل ما تبقى مني إن ذكرتها، فلن تصدقني آذان غلبتها كلماتك المعسولات، ونفاقك المنمق الجذاب.

دائما ما تذكرت أنك أبي ومالك أمري، وجلادي، سوطك ينهش لحمي، وصوتك يخترق بقايا إنسانيتي، في المنام كابوسي وفي اليقظة أنت واقعي فلا مفر منك إلا بالموت.

تتذكر.. وقت أن جردتني من ملابسي ولم تتركني إلا وقد سالت الدماء من جسدي، سجينة في معتقل قديم أجرمت لأنها لم تذاكر دروسها، كيف لفتاة في الصف الثاني الإعدادي أن تجلد بالسياط لعدم تركيز منها؟!. نعم ما زلت متذكرة.

لن أنسى ما حييت، فالمرة التي تضحك فيها، هدوء يسبق عاصفة من الإهانات والضربات شديدة القسوة كثيرة النزيف، أي جرم ارتكبته لاستيقظ من نومي مفزوعة لتلبية رغباتك، أتذكر نظرتي إليك وقتها عندما أيقظتني مبتسما وكأنك تهادني.. أنا آسف يا سلمي أنا مش هعرف أنام إلا لما أرتاح وأضربك؟!

- فاكر لما كنت بتصحيني من النوم وتضربني.. علشان نمت بعد ما ضربتني.. بدون ما أروحلك واتأسفلك؟!. فاكر لما كنت بتقول إن الحالة النفسية والهدوء اللي أنا كنت دايما فيه سببه الجن.. لكنك لم تفهم أبدا أنني أتجنبك فلا جن ولا مس ولا شيطان غيرك.

إنت معرفتش تربيني.. على نفاقك أو طريقتك أو تفكيرك أو حياتك.. الناس بتفتخر إنها اتربت.. وأنا بفتخر إني متربتش.. مش محتاجه حد غيري يربيني..

أنا اللي كونت شخصيتي بنفسي.. أنت أدتني أخطر حاجة ممكن أي حد يديها لإنسان.. أنت شلت معنى الكرامة والإنسانية من قاموسي.. وجعلت مني إنسان ميعرفش يعني إيه كلمة إهانة أو مشاعر.. أنت عمرك ما حسستني إني كسبت في مرة ودايما كنت في نظرك فاشلة.. خلتني أعيش الخسارة كل يوم.. لحد ما حبيت الخسارة أكتر من المكسب.

تخيل.. لما عشر سنين فاتت من عمري بدونك ومازلت الكابوس الوحيد.. تخيل إن موتك نفسه.. مش كفاية.. وأنا مش بقول الكلام ده عشان ألومك.. أنت أقل من إني أديك اهتمام.. أنا حياتي أغلى منك دلوقتي.. أنا بس جاية أقولك اتفرج عليا وإنت ميت - اتفرج عليا وأنا بعيش جثة حية تمشي بين الناس.

شفاه باردة على جبين بارد فطبعت قبلتها المرة «أنا مسمحاك لأنني سمعت ذات مرة أن المتشاحنين أو المتخاصمين في الدنيا يلتقون بين يد الله يوم القيامة وأنا مش عايزه أشوفك يوم القيامة».